مُقدّمة

إن في دراسة التاريخ لعبرة، وإن في دراستنا لأخبار المغول لعبرة أيضاً. فالجيوش المدججة بالسلاح والعتاد لم تكن العامل المهم في انتصار المغول واجتياحهم للعواصم والمدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى وإنما كانت الأوضاع السياسية المضطربة للدول الإسلامية من الأسباب الهامة لانتصارات المغول.

لقد انتصر المغول على العرب وعلى المسلمين وأذاقوهم الذل والهوان والويلات عندما كانت الأمة الإسلامية شيعاً وأحزاباً، في كل مدينة حاكم يسيطر عليها ويسعى لتحقيق أطماعه وتثبيت حكمه عن طريق التناحر والصراع مع بقية منافسيه متناسياً بذلك واجبه المقدس في حماية بلاده والتعاون مع أخوته وأصدقائه لدرء خطر العدو المغير.

تقدم المغول باتجاه الشرق العربي والإسلامي بعد أن قضوا على بقايا الدولة الخوارزمية التي كانت تسيطر على المناطق المجاورة لهم، وأحرقوا مراكز الحضارة الإسلامية، وخربوا مراكز العلم والأدب وقتلوا الآلاف من الأنفس البريئة بما فيهم الأطفال والشيوخ، وذبحوا العلماء والفقهاء، وتجمع المصادر التاريخية العربية الإسلامية وغير الإسلامية على هول الفظائع والجرائم التي ارتكبها المغول بحق العالم الإسلامي، ولو لم ترد أخبار هذه الحملات على ألسنة المؤرخين الثقات الذين عاصروا تلك الحوادث ورأوها بالعين المجردة لما أمكن تصديقها نتيجة للوحشية التي أبدوها تجاه معظم السكان.

وبعد القضاء على بقايا الدولة الخوارزمية توجه المغول للقضاء على الخلافة العباسية، وقد استطاعوا تحقيق ذلك حيث قتلوا المستعصم بالله وأفراد أسرته، وبذلك قضي على خلافة دامت أكثر من خمسة قرون كانت خلالها صاحبة الحول والطول والنفوذ الروحي والأدبي، على الرغم من انحسار ظلها السياسي قبل مجيء المغول إلى الشرق العربي.

توجه المغول بعد احتلال العراق إلى الشام وزرعوا الخراب والدمار في كل الأماكن التي مروا بها ناهيك عن القتل والتشريد لسكان تلك الأماكن، مما أدى إلى نتائج اجتماعية واقتصادية هامة انعكست بشكل سلبي على المجتمع العربي الإسلامي.

لقد وضع المغول نصب أعينهم احتلال الشام والعبور منها إلى مصر والقضاء على دولة

المماليك، غير أن ذلك لم يتسن لهم فقد واجه المغول جيشاً موحداً قوياً بقيادة حكيمة شجاعة مصممة على الدفاع عن دينها وأرضها وتراثها، وانهزم المغول أمام القوة الإسلامية الموحدة بقيادة المظفر قطز في موقعة عين جالوت التي شكلت نقطة هامة في التاريخ العربي الإسلامي، فقد أوقفت الهجوم المغولي مؤقتاً وحولت تياره من مد إلى جزر، ولقنت الأعداء درساً بان الثبات والعزيمة وقوة الإيمان أهم وأقوى وأرسخ من السلاح والعتاد.

كما أثبتت الأمة الإسلامية مجدداً أنها قادرة دائماً على الصمود والاتحاد أمام أي خطر يهدد كيانها وبقاءها.

ولا بد أن يستاءل كل باحث يخوض غمار البحث العلمي عن الدوافع التي حدت بالمغول إلى القدوم لبلاد الشام، وما هي الأسباب التي أعاقت بقاءهم بالمنطقة؟

في الحقيقة كانت الدوافع المغولية في السيطرة على بلاد الشام متعددة وكان أهمها الدوافع الاقتصادية وخاصة التجارية منها. حيث هدفوا إلى السيطرة على البحر الأبيض المتوسط الذي يربط المنطقة بأوروبا. وما يؤيد قولنا بأن الدوافع كانت اقتصادية ما أقدم عليه القائد المغولي تيمورلنك من أسره للصناع والتجار وأصحاب المهن والحرف سواء العلمية أو الأدبية أو الصناعية.

بعد الانتصار العربي في عين جالوت شهد المجتمع العربي الإسلامي هزائم كثيرة على يد المغول وكانت أسبابها هي تمزق الصف العربي الإسلامي، فقد نشأت الصراعات بين أفراد المماليك والسلاطين في مصر، كما أدت السياسة المملوكية الخاطئة المتمثلة بالتصفيات الجسدية للأمراء أحياناً، وبالنفي والإبعاد إلى مناطق نائية أحياناً أخرى إلى قيام حركات الشغب والتمرد في بلاد الشام، ولجوء بعض الأمراء إلى العدو المغولي والاستنجاد به، فرحب بهم وأقطعهم إقطاعات كبيرة بهدف الاستفادة من المعلومات العسكرية والسياسية الخاصة بالجيش المملوكي والتي عادت بالفائدة على العدو المغولي.

ومن الجدير بالذكر أن السلاطين المماليك لم يكونوا قادرين على تكوين وحدة اجتماعية فيها أدنى تواؤم. وعاشوا بمثابة طبقة مستبدة. وقد شهدت فترة حكمهم نزاعاً بين المماليك الأتراك الذين حكموا لفترة طويلة، والمماليك الجراكسة الذين حلوا محل الأتراك في عهد الظاهر برقوق غير أنه لم ينجم عن ذلك النزاع نتائج كبيرة على الصعيد السياسي.

لقد وضح في مجال البحث العلمي أن أقلام الباحثين لم تنجح حتى الآن في نقل انعكاسات هذه الحملات اقتصادياً واجتماعياً على المجتمع العربي الإسلامي في العراق والشام ومصر،

هذا المجتمع الذي ننتمي إليه بقيمنا وعاداتنا ومبادئنا وقوميتنا بينما نجهل عنه الكثير. واقتصرت اهتمامات الباحثين على الوضع السياسي وهذا لا يتلاءم أبداً مع مسيرة التطور التي يشهدها منهج علم التاريخ في الوقت الحاضر والمتجهة عموماً نحو الاهتمام بفروع التاريخ الاجتماعي والاقتصادي الذي يعد أهم فروع علم التاريخ وأكثرها صعوبة نتيجة لشح المواد ذات المضمون الاجتماعي في المصادر الإسلامية.

كانت هذه الأمور هي الدافع لدراسة الآثار الاجتماعية والاقتصادية للحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام. وقد حاولت الاطلاع على معظم المصادر التي كتبت عن فترة البحث والتي سبقته والتي تلته لأن جذور وامتداد الموضوع تجعل من الصعب حصره في نطاق زمني محدد. فقد اضطررت في كثير من الأحيان إلى العودة إلى فترات سابقة او لاحقة لاستكمال الصور الصحيحة لموضوع البحث، والإلمام بجميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية، وأعلن بأنني عانيت الكثير من الصعوبات بسبب شح المواد التاريخية ذات المضامين الاجتماعية والاقتصادية وأخص الاقتصادية بالذكر أكثر من الاجتماعية، ونتيجة لذلك اضطررت للعودة إلى مصادر اقتصادية بحتة لتفسير ظواهر التضخم وانخفاض وارتفاع القيمة الشرائية النقدية، والأسباب التي تدفع السلطات للإكثار من الضرائب والمكوس.

لقد استفدت إلى أبعد الحدود مما ورد في المصادر التاريخية من روايات إخبارية عن الحملات العسكرية المغولية ووظفتها خير توظيف، كما عمدت إلى استقراء وتحليل تلك الحوادث اقتصادياً واجتماعياً وفق مناهج البحث التاريخية الحديثة، ثم اتبعتها بنتائج التحليلات وقمت بطرح الأسئلة حول كل ظاهرة تستحق الاهتمام والبحث، فاستطعت أن أجيب على بعضها، ولم أستطع الإجابة على بعضها الآخر، وعلى كل فالسؤال يشكل نصف العلم، وربما تلقى تلك الأسئلة إجابات من باحثين آخرين.

لقد انطلقت للعمل في معظم مواضيع الكتاب على توضيح العادات والتقاليد الاجتماعية والقوانين الاقتصادية للمجتمع المدروس في بلاد الشام، ثم تبيان أثر تلك الحملات على القوانين والتقاليد.

وكان المنهج المتبع أيضاً أثناء الدراسة توضيح الآثار بالترتيب بدءاً من حملة هولاكو على بلاد الشام وانتهاء بحملة تيمورلنك. ولم يكن اهتمامي منصباً إطلاقاً على دراسة التاريخ السياسي كونه غطي بعدد من الدراسات الحديثة، وإنما تركز على دراسة خلفيات الحوادث الناجمة عن تلك الحملات والغوص في أعماق تلك الحوادث لاستخلاص بعض الآثار الاجتماعية والاقتصادية.

صفوة القول إن الأزمات الحادة التي عانتها السلطة كانت نتيجة للتدهور الاقتصادي والاجتماعي، والسلطنة انهارت اقتصادياً واجتماعياً قبل أن تنهار سياسياً، فمثلاً عند العودة لكتاب المقريزي (إغاثة الأمة) يلاحظ الباحث أن المؤلف عزا سبب خلل نظم الدولة الاقتصادية إلى التضخم النقدي وأوضاع الجند وغير ذلك.

وأخيراً لعل من أصعب الأمور على الباحث أن يحاول شق طريقه للمرة الأولى ثم أن يخطو عليه بخطى ثابتة وصحيحة. لكنني استطعت ذلك بفضل توجهات وإرشادات الدكتور الأستاذ سهيل زكار الذي منحني الاهتمام العلمي، وذلل الصعاب أمامي، وجعل مكتبته الخاصة تحت تصرفي أنهل منها ما أريد حتى خرج البحث بهذه الصورة إلى النور.

جاءالكتاب في من خمسة فصول رئيسية مع مدخل وخاتمةن درست في المدخل أوضاع بلاد الشام سياسياً وإدارياً وعسكرياً، وما كان يجري فيها من ظروف وأحداث مختلفة، وعرفت بموقعة عين جالوت سنة ٣٥٨ هـ /١٢٥٩م وأهميتها في وقف المد المغولي نحو مصر، وتحول تياره إلى جزر، وأهمية الموقعة في اختبار قدرات المماليك العسكرية التي أثبتت تفوقها في القتال. وأبرزت موقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ /١٢٨١م وأسباب انتصار المسلمين فيها، ووقعة الخازندار سنة ٦٩٩ هـ ١٢٩٩م. وإخفاق الجيش العربي الإسلامي في التصدي للقوات المغولية مما كان له أكبر الأثر في استمرار تقدم هذه الجيوش الجرارة نحو حمص ثم دمشق وارتكاب الفظائع والأهوال في المدينة وضواحيها من قتل وسلب وتدمير لكافة المنشآت، ثم بحثت في وقعة شقحب سنة ٧٠٢ هـ/١٣٠٢م وانتصار المسلمين فيها مما كان له عظيم الأثر بتوقف الهجمات المغولية على بلاد الشام لفترة طويلة، ثم جعلت الحديث بعدها عن تدهور أوضاع السلطنة المملوكية، تبعها قدوم تيمورلنك إلى بلاد الشام، وما أحدثته غزوته من دمار كامل لمعظم المنشآت الدينية، وركزت البحث على تصفية الوجود الصليبي وارتباط مصالحهم مع مصالح المغول، كما تناولت بالبحث العلاقات المملوكية الأرمينية وبحثت الأسباب التي ارغمت المماليك على تقليل نفوذ الأرمن ثم القضاء على عرش ارمينية نهائياً وأخيراً أبرزت الوضع الإداري بما يفيد البحث وبشكل موجز وسريع.

وحمل الفصل الأول عنوان آثار الحملات العسكرية المغولية على المدن. فدرست قتل السكان من قبل المغول ونهبهم وتشريدهم، وحدوث تحركات سكانية إما من بلاد الشام لمصر، أو من المدن إلى الأرياف، وأوليت الاهتمام لدراسة الهجرة المغولية إلى البلاد، وبينت أن الشام كانت في بعض الأحيان منطقة عبور للوافدين المغول، وأحياناً أخرى كانت منطقة لاستقرارهم مما يعني نقلهم لبعض العادات والتقاليد المغولية، إلى جانب الأفكار الاجتماعية

والدينية، وتلقي بلاد الشام لعدد كبير من المهاجرين من العراق والجزيرة إثر اجتياح المغول لأراضيهم. وكشفت تأثر الناحية الدينية بالغزو المغولي، فقد شهدت العلاقات الاجتماعية لأهل الذمة تغيراً ملحوظاً عند دخول المغول لدمشق في حملة هولاكو، فقد استطالوا على المسلمين. إضافة إلى ازدياد الوعي الديني والسياسي وكثرة انتشار الأربطة والزوايا والاعتقاد بالغيبات. وأثر الغزو بشكل مباشر في ازدياد شرب الخمر والحشيش وانتشار البغاء واللواطة وانعدام الاستقرار الاجتماعي الذي كان يتمتع به المجتمع العربي، ولم اغفل الحديث عن دور التنظيمات الشعبية كالزعر والحرافيش في تبني مصالح الرعية والدفاع عنها، والوقوف بجانبها أثناء حصول الهجوم المغولي.

أما الفصل الثاني الذي حمل عنوان «آثار الحملات العسكرية المغولية على الأرياف» فقد تناول موضوعات متعددة أهمها قتل سكان الأرياف من قبل جنود العدو المغولي، وتدمير أراضيهم الزارعية بما فيها أقنية الري ووسائله، وهجرة سكان الأرياف إلى المدن، وازدياد النزاع بين القيسية واليمنية نتيجة اضطراب الظروف الأمنية التي أدت إلى الفوضى وعدم الاستقرار، وسعيت دائماً إلى ضرب الأمثلة بما يغطي بلاد الشام. ودرست اهتمام السلطات بمعاقبة سكان جبال كسروان والمناطق المحيطة بهم نتيجة للدور السلبي الذي مارسوه تجاه السلطات من جهة أو سلبهم للجند المملوكي الهارب من المعارك مع المغول، أو المتوجه إلى قتال المغول من جهة أخرى. وأفردت الحديث عن تأثر الزراعة والأراضي الزراعية بالهجوم وكيف سببت هذه الهجمات خراباً لأكثر الأراضي الزراعية الإقطاعية.

وحاولت في الفصل الثالث والمخصص للحديث عن «آثار الحملات المغولية على البادية والقبائل غير العربية» رسم صورة متكاملة عن أوضاع البدو الذين كانوا أوفر حظاً من سكان المدن ومن الفلاحين، حيث لم تتعرض مناطقهم بشكل مباشر للتخريب، ونجوا من الفتك والهلاك الذي تعرض له معظم سكان البلاد أثناء حصول الهجوم. ومن المرجح، أن البدو عمدوا إلى تنشيط تجارة - التهريب - عبر البادية، حيث أمدوا الأطراف المتصارعة المملوكية والمغولية بالسلاح والعتاد الضروري، وساعدهم على عملهم غياب رقابة السلطات، واتساع حدود البادية وهذا هو السبب الأقوى للثراء الذي تمتع به البدو، وطرحت عدة تساؤلات عن أسباب هذا الثراء، وقد تمت معالجتها أثناء الكتابة.

وكان التركمان هم الطرف الآخر المخصص للبحث في هذا الفصل، فقد بحثت القبائل التركمانية الموجودة داخل بلاد الشام والموجودة في المناطق المحيطة بها، وتأرجح مواقفها ما بين مؤيد للسلطات ومساند لها أثناء وقعة حمص والخازندار، وما بين معارض لها بعد حصول

غزوة تيمورلنك، حيث بدأت بث الرعب والفساد في المناطق الشمالية كحلب، والشرقية لبلاد الشام، وتحدثت عن قدوم تحركات تركمانية جديدة أثناء حملة تيمورلنك. وهذا ما كان له أثر كبير على الناحية الاجتماعية لبلاد الشام.

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن «آثار الحملات المغولية على الوضع المالي من جانب الدخل والنفقات» فتناولت أولاً الحديث عن الإقطاع والآثار التي أحدثتها الهجمات في تبدل وتغير بعض أسس الإقطاع كديوان الجيش، وميزت بين توزيع الإقطاعات لأسباب حربية، وتوزيعها لأسباب مالية اقتصادية، وإعادة روك الأراضي من جديد نتيجة للتدمير والتخريب. وبينت آثار الغزو في استحداث ضرائب جديدة والتي أطلق عليها بعض المؤرخين الضرائب الطارئة كالتي استحدثها السلطان قطز عند ورود الأنباء بقدوم المغول نحو المنطقة الجنوبية من بلاد الشام. وكان كلما توارد إلى مسامع السلطات المملوكية قدوم الغزاة تفرض ضرائب على الرعية منها ضريبة سنة ٧٠٠ هـ التي كانت من أكثر الضرائب وطأ على المجتمع فقد اضطر الفلاحون إلى بيع الحطب لتسديدها، فضلاً عن الضرائب التي فرضها قواد المغول على سكان بلاد الشام في أثناء حملات هولاكو، غازان، تيمورلنك.

ومع ذلك فقد استطاع سكان بلاد الشام النهوض مرة أخرى وتشغيل الورشات الصناعية التي لم تكن تحتاج لأموال كثيرة إنما لأيدي عاملة نشيطة، وإعادة إعمار ما تهدم سواء بمساعدة السلطات مادياً بالإنفاق من الخزينة العامة، أو عن طريق التبرعات، والصدقات، وأعمال السخرة. وشهدت البلاد نهوضاً اقتصادياً ملحوظاً لفترة طويلة بعد وقعة شقحب، ولا سيما في كثرة المشاريع العمرانية التي تدل على تقدم وتطور الفنون المعمارية والزخرفية، والتي تخلد ذكرى السلاطين المماليك، ولو بقيت جميع هذه المنشآت لكانت شاهداً يتكلم عن تفوق وتطور الحضارة العربية المعمارية آنذاك.

وكان النظام النقدي والأسعار قوام دخل السلطات المملوكية في فترة البحث، وجاء الحديث عنها بشكل مفصل وبما يفيد البحث، فقد شرحت ارتباط القيمة النقدية للعملات، بالقوة الشرائية النقدية إلى جانب تذبذب أسعار صرف العملات، وظهور التضخم المالي نتيجة للفروق الشاسعة بين أسعار الصرف والقوة الشرائية، فالنقد والأسعار مرتبطان تماماً، فكلما ارتفعت الأسعار تؤدي بالمقابل إلى انخفاض القيمة الشرائية النقدية، والعكس صحيح وأوردت عدة جداول تبين ارتفاع وانخفاض القيمة الشرائية الضرورية أثناء الهجوم المغولي على البلاد وأحياناً فقدانها.

وخصصت الأوقاف بأهمية ملحوظة، فقد درست أوضاعها، وكيفية حصول التلاعب والتغيير في قوانينها بتحويل الإقطاعات إلى أوقاف ذرية منعاً لمصادرة أموالها من قبل السلطات، ولم أغفل ما تعرضت له هذه الأوقاف من تبدل في بنيتها الاجتماعية نتيجة هجرة سكانها أو قتلهم، وحلول آخرين محلهم، إلى جانب التغيير في عمرانها الهندسي.

ولم أغفل الحديث عن المصادرات التي تمت إما من قبل رجال الدولة نتيجة لقدوم المغول، أو من قبل قواد المغول أنفسهم.

وأوقفت القسم الثاني من هذا الفصل على دراسة نفقات السلطات وقسمتها إلى النفقات على مشاريع الترميم والإصلاح للمنشآت العمرانية التي خربها المغول أثناء حملات هولاكو وغازان وتيمورلنك وكشفت النقاب عن المصادر المالية التي مولت مشاريع الترميم والتي تعددت، كما تحدثت عن نفقات الدولة على الحملات العسكرية والتجنيد العام.

وأخيراً بحثت في الرشوة التي كانت موجودة في المجتمع العربي، لكن الهجوم المغولي زاد استشراءها فعادت بنتائج سلبية كبيرة، وأنشىء لها ديوان البذل، ولكثرة انتشارها فإن تيمورلنك قد لام برقوق على أخذه الرشوة وانتشارها في أيامه.

وأبرزت في الفصل الخامس «آثار الهجوم المغولي على الصناعة والتجارة» فتحدثت عن انعدام وجود المستهلكين للصناعات بسبب القتل أو الأسر أو الهجرة إلى مصر. إلى جانب فقدان رؤوس الأموال نتيجة الجبايات المتعددة، وكشفت أثر الغزو في تجميد الاستثمارات الصناعية وخسارة المجتمع لمثل هذه الاستثمارات نتيجة لانعدام الأمن ورؤوس الأموال. وعرضت تأثر البلاد بنقل تيمورلنك للمهرة من الحرفيين والصناع والعلماء إلى بلاده وتجميعهم في مدن عمالية كبيرة، مما أدى إلى فقدان بلاد الشام بعض الصناعات كصناعة الزجاج، وفقدان مهرة الأيدي العاملة مما قلل من جودة الصناعات وخاصة اليدوية منها.

وتخلخل وضع التجارة سواء الداخلية عند حصول الهجوم حيث كانت تغلق الأسواق مما يؤدي إلى توقف عملية البيع والشراء، أو الخارجية نتيجة تحول معظم الطرق التجارية عنها وخاصة الآتية من الشرق الأقصى (الهند والصين) إلى البحر المتوسط، ساعد على تحول هذه الطرق انعدام الأمن نتيجة مرور معظمهما بالمناطق التي يسيطر عليها المغول كالعراق وفارس إضافة إلى فقدان حلب لأهميتها التجارية نتيجة ازدهار موانئ أرمينية الصغرى وخاصة إياس.

وفقدان بلاد الشام للرسوم التي كانت تجنى من تجارة «الترانزيت» عبر أراضيها والتي كانت تعود عليها بفائدة كبيرة. في النهاية يمكن القول بأن اهتمام المغول بتنشيط تجارة

بحر قزوين والأسود أدى إلى تحول معظم طرق التجارة عن بلاد الشام، إلى جانب ازدهار طريق البحر الأحمر التجاري وبالتالي فقدت معظم المحطات التجارية البرية في بلاد الشام وخاصة دمشق أهميتها التجارية ولم تستطع بعدها تعويضها بسبب وقوع البلاد تحت سيطرة العثمانيين من جديد.

وكان لا بد من القول في النهاية إن حملات المغول على المراكز الحضارية الإسلامية تعد أهم حوادث التاريخ في القرنين السابع والثامن الهجريين / الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وستبقى حملات المغول على بلاد الشام أنموذجاً لأحداث كبيرة الأبعاد في التاريخ، ومقياساً لطمع الشعوب في امتلاك الأرض العربية الإسلامية التي حوت أعظم وأرقى الحضارات الإنسانية، وأنجبت القادة العظام والمفكرين والعلماء النجباء، هذه الحقيقة يجب أن تعلمها كل الأجيال ومهما كانت الظروف، أنه صراع وجود أو لا وجود، طال الزمن أم قصر.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في بحثي الذي هو نتيجة استقصاء بحث سنين عديدة، ولي ثقة بحسن الظن ما يطمعني بطلب العفو إن ظهر مني تقصير في البحث فالكمال لله وحده. ويسرني أن أتقدم بخالص شكري إلى أستاذي سهيل زكار للإرشادات القيمة التي كان لها فضل كبير في إنجاز الكتاب، كما أشكر جميع الأساتذة الدكاترة الذين كان لهم فضل في مساعدتي.

المصادر (دراسة وتعريف)

استأثر العصر المملوكي بالعديد من الكتابات والمؤلفات التاريخية وتميز بكثرة المؤرخين وغزارة إنتاجهم ذلك أن هذا العصر شهد أحداثاً جسيمة تمثلت في الصراع العربي الفرنجي، والصراع العربي المغولي، مما أضفى أهمية خاصة على الحقبة الزمنية المدروسة من التاريخ الإسلامي. وعلى الرغم من الأهمية البالغة لعصر سلاطين المماليك البحرية بوجه عام (٦٤٨ هـ -٧٨٤ هـ/ ١٢٥٠ م- ١٣٨٢م) وعصر السلطان محمد بن قلاوون بوجه خاص (٦٩٣-٧٤١ هـ/ ١٢٩٣-١٣٤١م) فإن هذا العصر لم يبحث بحثاً علمياً في الشرق الإسلامي وخصوصاً فيما يتعلق بتأثيرات الحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام لا سيما ما نجم عنها من آثار اقتصادية واجتماعية. إن أغلب المؤرخين عمدوا إلى تجميع العديد من المعلومات المتعلقة بالفترة المملوكية وصياغتها وتفسيرها في مؤلف عام دون الاهتمام بتحليل المصادر الأساسية التي استقوا منها تلك الحقائق التاريخية المقدمة لنا في مؤلفاتهم[1].

وتنقسم مصادرنا إلى نوعين:

١- نوع كان المؤلف فيه شاهد عيان للأحداث التي دونها، أو وصلت إليه أخبارها عن طريق الرواية المباشرة.

٢- ونوع آخر عمد فيه المؤرخ إلى نقل وتوضيح رواية مؤلف سابق عليه أو حتى على إيجازها واختصارها. ويجب التنويه بأنه في الحالة الأولى يعتبر علم المؤرخ ذا أهمية كبرى بالنسبة للباحث، بينما تحتم علينا طرق البحث العلمي والأمانة العملية أن ننظر في الحالة الثانية فيما إذا كان عمل المؤرخ وصل إلينا كاملاً، وندقق ونمحص الأخبار التي نقلها ونحللها ونتبين فيما إذا كان قد دخلها أي تشويش.

وقد وضعت نصب عيني منذ بدء دراسة المصادر المتعلقة بموضوع الكتاب استنباط الحوادث التاريخية لا سيما أن معظم المصادر التي بحثت بها كانت إخبارية ولم تهتم إلا بالنواحي السياسية المملوكية، وعانيت منذ البداية من صعوبة الموضوع ولكن بالبحث

١- أحمد (أحمد عبد الرزاق): دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، شارع الليث – الزيتون ١٩٧٤م، ص ٥.

والمثابرة والجهد استطعت الإلمام بالخطوط العريضة للموضوع حتى تمكنت من صياغة فصول هذا الكتاب.

لقد تنوعت المصادر التي درستها كالسياسية والجغرافية والأدبية والاقتصادية والتراجم والسير، وراعيت تصنيفها حسب الإقليم، وزمن وفاة المؤلف، وحسب أنواعها. ولا بد أن أشير في البداية بأن كتب التاريخ منها ما هو شامي ومنها ما هو مصري وأنا لم أميز بين هذه الكتب ذلك أن جل المؤرخين كانوا مصريين وشاميين فالمقريزي أمضى شطراً من حياته في بلاد الشام وإن عد مصرياً فهو شامي الأصل، وكذلك العيني فهو شامي الأصل أمضى أولاً شطراً من حياته في بلاد الشام ثم انتقل إلى مصر وتسلم فيها مناصب هامة كالحسبة، وشكلت بلاد الشام ومصر سلطنة واحدة لذلك سأستعرض المصادر الشامية المصرية كتلة واحدة.

ونظراً للأهمية البالغة لكتب التاريخ العام وضعت نصب عيني دراستها أولاً لأنها أعطت تقريباً الإطار الكامل لأحداث الحملات العسكرية المغولية وكان أول تلك الكتب ذيل الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع)، لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٦م)، وكان من كبار علماء دمشق في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وقد اهتم بتدوين أخبار الصليبيين مع موضوع الاجتياح المغولي لبلاد الشام. كان نهج أبي شامة في كتابه كنهج من سبقه من المؤرخين الحوليين، وقد أمكن الاستفادة من بعض المواد المعروضة بكتابه في المدخل السياسي، / واستثمرت بعضها الآخر في الفصل الاجتماعي وهي ليست كثيرة لا سيما أن أبا شامة لم يشهد سوى حملة هولاكو على بلاد الشام.

ولا تقل مكانة بيبرس المنصوري المصري النشأة (ت ٧٢٥ هـ /١٣٢٥م) عما سبقه من المؤرخين الحوليين. وبيبرس المذكور وصل إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ /١٢٦٠م بصحبة مجاهد الدين قايماز الموصلي خادم الملك الرحيم صاحب الموصل فاشتراه المنصور قلاوون وأدخله في زمرة أرباب الجامكيات، وبعدها أصبح في السلك السياسي، ومر بمناصب سياسية متعددة.

اشترك بيبرس المنصوري في الحروب ضد الصليبيين والمغول في بلاد الشام وفلسطين سنة (٧٠٠-٧٠٢ هـ/ ١٣٠٠-١٣٠٢م) وآسيا الصغرى، ثم تولى نيابة الكرك، وبعدها ديوان الإنشاء.

ترك بيبرس الدوادار مؤلفين هامين سجل فيهما الأحداث التي عاصرها ورآها بعينه وهما (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) وينتهي سنة ٧٢٤ هـ/١٣٢٤م لكن للأسف غير متوفر في مكتباتنا، والثاني (التحفة الملوكية في الدولة التركية) وينتهي عام ٧١١ هـ /١٣١١م. ولا شك

أن المؤلف أولى الأحداث التاريخية في كتابه هذا عناية خاصة، وأسهب في تفاصيل بعضها الآخر.

ويثني الباحثون على أسلوبه الجميل الفصيح الموشى بالسجع والمحسنات اللفظية رغم أنه يؤكد على ولعه بالتاريخ فيقول في مقدمة التحفة:

«إنني صرفت الهمة إلى تدوين التواريخ والسير وتلخيص ما فيها من خبر مختبر، وإيداعها صدور الطروس لتكون عبرة لمن اعتبر»[1].

ويسير في كتابه حسب التسلسل الزمني، ولكن دون أن يذكر في نهاية كل سنة أسماء من توفى بها من مشاهير الأعيان.

واعتمد أيضاً في توثيق حوادثه حتى سنة ٦٨٥ هـ على المعلومات الواردة في كتب من سبقه من المؤرخين، بينما اعتمد من سنة ٦٨٥ هـ وحتى ٧١١ هـ على مشاهداته الشخصية بفضل المناصب التي تقلدها.

ويمكن القول أمدنا هذا الكتاب بمعلومات قيمة عن المعارك العسكرية ضد المغول سيما وأنه وصفها وصفاً دقيقاً باعتبار مؤلفه قد خاض المعارك إلى جانب الجيش المملوكي، وقد استثمرت مواده بشكل تام في المدخل السياسي وفي الفصل الاجتماعي خاصة بالنسبة للمهاجرين إلى مصر أثناء هجوم غازان على بلاد الشام سنة ٦٩٩ هـ.

وتميز عصر الناصر محمد بن قلاوون بتشجيعه للحركة العلمية التي عرفت درجة من العطاء تمثلت بإنتاج وفير في شتى العلوم. وكان للاستقرار السياسي الذي شهدته بلاد الشام ومصر منذ اعتلاء الناصر العرش للمرة الثالثة والدور الذي قامت به المؤسسات الثقافية من مدارس وجوامع وخانقاوات وبيمارستانات أثر كبير في ظهور عدد كبير من المؤرخين البارزين الذين يعدون أعلاماً في الثقافة الإسلامية، من بين هؤلاء نذكر قطب الدين موسى بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي (ت ٧٢٦ هـ /١٣٢٦م). قدم لنا قطب الدين معلومات إخبارية هامة عن الأحداث السياسية في العصر المملوكي. فقد اختصر (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) لسبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ /١٢٥٦م إلى النصف وذيل عليها ذيلاً في أربعة مجلدات عرف باسم (ذيل مرآة الزمان).

تبدأ حوادثه في السنة نفسها التي توفي فيها سبط ابن الجوزي وتستمر الأجزاء التي وصلت إلينا حتى سنة ٧١١ هـ /١٣١٢م.

١- ينظر بيبرس المنصوري/التحفة الملوكية في الدولة التركية، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة١، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م، ص ٢٣

ويؤكد بعض الباحثين بأن اليونيني قد اعتمد كلياً على تاريخ الجزري المعروف باسم (جواهر السلوك في الخلفاء والملوك من جهة)، وبالذات فيما يتعلق منه بحوادث سنة ٦٩٤ هـ /١٢٩٤م، لكنه عمد إلى تغيير بعض العبارات والألفاظ، ومن جهة أخرى فقد اعتمد على تاريخ البرزالي في كتابه المقتفى.

واتبع اليونيني في منهجه التأريخ الحولي، وعمد إلى معالجة موضوعاته في شيء من التفصيل، وانفرد في بعض الأحيان بذكر موضوعات جديدة أهمها تكوين المماليك لجيش مدني للدفاع عن دمشق بعد نجاحهم في استردادها سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م. وعلى الرغم من تداخل معلومات اليونيني وتشويشها إلا أنني استفدت منها بشكل كبير في المدخل السياسي، وبعض القوانين الاقتصادية في بلاد الشام في عصر الظاهر بيبرس سيما حول قطيعة البساتين، وتراجم بعض الشخصيات الدينية وانتشرت الفوائد منه في أماكن متعددة من الكتاب.

وبالرغم من خضوع بلاد الشام جميعها لسيطرة المماليك، إلا أن حماه بقيت تحكم من قبل الأيوبيين لفترة طويلة، وإن عدت تحت السيطرة المملوكية ومن أبرز الذين حكموها أبو الفداء عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٣ هـ) الذي يعد أحد أئمة المؤرخين في عصر المماليك الذين استطاعوا أن يصوروا لنا الأحداث السياسية في الشام ومصر بل وفي الأقاليم المنعزلة.

وتعود براعته في ميدان الكتابة إلى ثقافته العالية ووضعه السياسي، فقد كان أحد ملوك الأسرة الأيوبية الحاكمة التي استعادت مجدها على يدي السلطان الناصر محمد، وقد تولى أبو الفداء ملك حماة سنة ٧١٢ هـ /١٣١٢م، ثم عين سلطاناً لمملكة حماة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م.

وساهم أبو الفداء في الحملات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين والروم والمغول في بلاد الشام. وصفوة القول استطاع أبو الفداء أن يسجل لنا أحداث عصره في سن مبكرة، ومرجع هذا يعود إلى تمرسه على أيدي كبار المؤرخين، وإلى خبرته الشخصية وثقافته، وكانت أهم مؤلفاته التي استفدت منها: (المختصر في أخبار البشر) وهو كتاب تاريخي شامل، وله كتاب آخر (تقويم البلدان)) سيرد وصفه بين المصادر الجغرافية.

وعلى الرغم من إطلاع أبي الفداء على القضايا السياسية المتعلقة بالدولة المملوكية إلا أن مؤلفه المختصر جاء خالياً من تفاصيل هذه المسائل السياسية، ومع هذا يعد أكثر كتب تاريخ هذه الفترة أصالة واقدرها على تفسير الأحداث التاريخية بالأدلة والبراهين. وحرص أبو الفداء على تجنب الاقتباس من المصادر الأخرى المعاصرة، وعلى ترتيب مادته بطريقة علمية منظمة، هذا فضلاً عن الإضافات العديدة التي لم ترد في أي من المصادر الأخرى.

لقد استفدت من تاريخ أبي الفداء في الفصل السياسي لا سيما ما يتعلق بالحروب الصليبية فقد انفرد تقريباً بما ذكره عن تهديم قلاوون لطرابلس والخوف والذعر الذي أصاب الفرنجة من جراء ذلك. وجاء الوصف على لسانه كونه مشاركاً في الحملة، إضافة إلى ذكره للحملات العسكرية المملوكية ضد الأرمن، كما استفدت منه بما أورده من معلومات اجتماعية حول قتل سكان حلب على يد هولاكو والفظائع التي ارتكبها المغول بحلب، غير أن استفادتي من كتابه كانت قليلة جداً بما يخص الفصل الاقتصادي وفيما يتعلق بالإقطاع.

ويحتوي كتاب (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، للمؤرخ سيف الدين أبي بكر بن أيبك الدواداري ((لا تعرف له ولادة ويعتقد أن وفاته كانت سنة ٧٣٢ هـ)) على معلومات هامة جداً على الصعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالنسبة للهجوم المغولي على بلاد الشام، خاصة بصدد حملات غازان وما أحدثته من آثار تدميرية على البلاد، وهروب قراسنقر المنصوري إلى بلاد المغول، واعتماد المغول عليه بشكل كبير في تدريب الجيش المغولي، ويكاد ابن الدواداري أن ينفرد بهذه المعلومات عن غيره من المصادر الأخرى.

وجاء اعتمادي على كتابه الدر الفاخر هو الجزء التاسع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر، يشتمل هذا على سلطنة الناصر محمد من سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٨م إلى سنة ٧٣٦ هـ /١٣٣٦م، وتتشابه موضوعات هذا الكتاب من حيث الجوهر مع مؤلفي بيبرس الدوادار زبدة الفكرة، والتحفة الملوكية مع بعض الاختلافات التي تتمثل في بعض الاستطرادات.

ولا تقل مكانة شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ /١٣٤٨م) عمن سبقه من المؤرخين، وهو أحد الذين تولوا الزعامة في ميدان التأليف في التاريخ المملوكي المبكر.

تؤكد الدراسات أن الذهبي استفاد من مؤلفات المؤرخين الذين سبقوه أمثال الجزري واليونيني. وأهم مؤلفاته المستفاد منها في مجال البحث(دول الإسلام) و(العبر في خبر من غبر).

فكتابه دول الإسلام عبارة عن موجز للتاريخ الإسلامي إذ يبدأ منذ عصر الرسول ويمتد حتى يصل إلى أحداث سنة ٧٤٤ هـ /١٣٤٤م.

والمتأمل لكتاب دول الإسلام يلاحظ محاولة المؤلف تلخيص كتابه الإسلام، وبالتالي لم يضف إلا القليل النادر إلى معلوماتنا بصدد عصر السلطان محمد بن قلاوون، وهكذا فإن مواده الاجتماعية والاقتصادية كانت شحيحة جداً،ومع ذلك لم أوفرها وحاولت الإفادة منها

أما كتابه الثاني ((العبر)) فقد تألف من خمسة أجزاء، ولم أتمكن من الإفادة منه

بشكل كبير واقتصرت هذه الإفادة على بعض تراجم شخصياته التي احتلت مكانة سياسية وإدارية ودينية فمعلوماته مختصرة ومقتضبة.

ويعد زين الدين عمر بن الوردي (ت٧٤٩ هـ /١٣٤٩م) من بين المؤرخين العرب الثقات: نشأ بحلب وتولى عدة مناصب هامة منها قضاء منبج وقد وضع تاريخاً عرف باسم ((تتمة المختصر في أخبار البشر)) قصد به أن يكون تتمة لتاريخ أبي الفداء المعروف باسم المختصر. فلم يضف ابن الوردي إلى كتابه إلا موضوعاً واحداً جديداً كان أبو الفداء قد أغفله وهو إسلام غازان، وتدل تراجم الوفيات على عنايته بالموضوعات الدينية. ولا يغيب عن الذهن أن ابن الوردي نهج منهجاً حولياً، وقد استفاض في ذكر بعض الحوادث الهامة، واختصر في بعضها الآخر.

كانت استفادتي من هذا الكتاب في الفصل الاجتماعي والسياسي لا سيما بصدد هجمات المغول على مدن الشام والمناطق التي خربوها، وقد كانت هذه الفائدة قليلة في فصل البادية والفصل الاقتصادي. ومع هذا يعد أحد المصادر الهامة الإخبارية المعاصرة لحكم الناصر محمد بن قلاوون. وتناولت بالدراسة كتاب الإمام أبي محمد عبد الله بن اسعد اليافعي المكي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ /١٣٦٦م وعنوانه ((مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان). يبدو الكتاب فقيراً ومختصراً في مادته التاريخية، في الوقت الذي يزخر فهي بتراجم الوفيات حيث ينهج المؤرخ به النهج الحولي، فهو يذكر أحداث السنوات ثم يتبعها بذكر الوفيات. والاستفادة منه كانت محدودة واقتصرت على الفصل السياسي وبعض الحوادث في الفصل الاجتماعي.

وقدم عماد الدين إسماعيل القرشي المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) مواداً تاريخية هامة ضمنها في كتابه الشهير ((البداية والنهاية)) كان ابن كثير شامي المولد والمنشأ، وكان من أتباع تقي الدين بن تيمية، تولى التدريس بعدة مدارس. وألف كتباً متعددة في التاريخ والتفسير.

وبالرغم من أن ابن كثير قد عاصر قسماً من أحداث الحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام إلا أنه كان ناقلاً لمعظم مواده عمن سبقه من المؤرخين أمثال البرزالي من كتابه المقتفى على تاريخ أبي شامة.

وتظهر دارسة البداية لابن كثير أنه اعتمد على تنسيق وترتيب فقرات المقتفى ثم قدمها على أنها عمل من صنعه، وعمد إلى سد ثغرات المقتفى ببعض النصوص التي أخذها من تاريخ الجزري (حوادث الزمان) ولعل خير مثال على ذلك إشاراته إلى الحريق الذي تعرضت له بوابات

السجن سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م على أيدي جماعة من المسجونين الهاربين، وإلى دور ابن تيمية في الكلام مع غازان، ومباحثاته مع أرجواش، وعبث الحرافشة في المدينة خاصة وهذه أخبار هامة لأن أغلب المصادر المعاصرة للحوادث لم تتعرض لها.

لقد اتبع ابن كثير التسلسل الزمني للحوادث سنة بسنة دون ذكر أي عناوين فرعية لها وأتبع كل سنة بذكر وفيات الشخصيات الهامة فقط. ومواد ابن كثير غنية لكن يعوزها التحليل والتقصي والاستنتاج، وأمكن الاستفادة منها لبعد تحليلها، لكن بعض المواد لديه أتت مختصرة، وكان أسلوبه قريباً إلى العامية منه إلى الفصحى، ولم يخف ابن كثير في كتابه هجومه على بعض المخالفين للشريعة الإسلامية، أو بعض الخارجين عن طاعة السلاطين المماليك من الأمراء، وانصبت اهتمامات ابن كثير في نبع أساسي هو معالجة مصلحة بلاد الشام. ويتضمن كتابه مدى إعجابه بأستاذه ابن تيمية لنجاحه في استمالة قلوب الدمشقيين حوله.

خلاصة القول أن مواد ابن كثير على الرغم مما وصفت آنفاً لم أستغن عنها نظراً لغزارتها وأهميتها. وقد توزعت على فصول الكتاب لا سيما السياسي والاجتماعي لأنها كانت أقل منها في الاقتصادي. وقياساً على المؤرخين البارزين في الشام نبغ في مصر مؤرخون بارزون أيضاً منهم الحسن بن حبيب المتوفى سنة (٧٧٩ هـ /١٣٧٧م).

نشأ الحسن بن حبيب في بيئة علمية بحتة، فقد تنقل والده طلباً للعمل بين دمشق ومصر وحلب وسمع من مشاهير عصره وأتاح هذا المناخ للحسن حضور مجالس العلم في بلاد الشام منذ طفولته، وهذا يقود إلى القول بأن الحسن بن حبيب وإن كان مصري المولد فإنه شامي الثقافة.

ألف عدة كتب هامة لكن الاستفادة في مجال البحث تجلت من كتابه ((تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه)) وقد تألف من جزأين، أوقف فهيما المؤلف الحوادث التاريخية على ذكر أحوال المماليك من سنة ٦٧٨ هـ /١٢٧٩م وحتى سنة ٧٤١ هـ /١٣٤٠م واتبع ابن حبيب فيه المنهج الحولي مع ذكر الوفيات في نهاية كل سنة. وقد جمع ابن حبيب في تاريخه أحداثاً سياسية واجتماعية وإدارية وقضائية. وعليه جاءت استفادتي في الأحداث السياسية وبعض الإدارية والاجتماعية لكن لم أفد في الأحداث الاقتصادية، ثم إن الأحداث الاجتماعية والسياسية لديه ليست جديدة بل أوردها مؤرخون آخرون.

ويجب ألا نغفل ذكر المؤرخ محمد بن محمد صصري (لم تعرف له وفاة) وكتابه ((الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية)). تناول كتاب ابن صصري فترة تاريخية هامة تمتد من سنة ٧٩١

هـ وحتى سنة ٧٩٩ هـ /١٣٩٦م ويلاحظ من خلال استعراض الكتاب أنه استخدم التاريخ لأهداف دينية بأسلوبه الموشى بالآيات والأحاديث المقتبسة، وعمد إلى عرض الحوادث التاريخية المجردة بإطار فكاهي فكان يذكر الحادثة ثم يستشهد بحادثة مماثلة جرت في عصور قبلها مثلاً في العصر الأموي، غير أن أسلوبه في التاريخ ماثل بقية المؤرخين الحوليين، فقد كان يذكر أحداث السنة بعناوين واضحة تشير إلى ما سيتحدث عنه.

وقد واجهت بعض الصعوبات أثناء قراءة الكتاب بسبب رداءة أسلوب المؤرخ. وقرب لغته إلى العامية، وعدم ترابط الجمل اللغوية مع بعضها بعضاً، ومع كل هذا فقد أمكن الاستفادة منه خاصة في النواحي الاقتصادية، لا سيما في جداول الأسعار والأزمات الاقتصادية مثل حادثة النشو ومقتله، وفي بحث التجارة كما أنه انفرد بذكر معلومة اجتماعية لم يذكرها أحد من المؤرخين وهي قدوم السلطان أحمد بن أويس إلى دمشق مع مجموعة من جنده وتناولهم الحشيشة على مرأى ومسمع من الناس، واستفدت منه في فصل البادية، ولكن الاستفادة منه لم تكن تماثل الاستفادة من المقريزي أو العيني.

ويعد ناصر الدين بن عبد الرحيم بن علي بن الفرات المصري الحنفي المذهب (ت ٨٠٧ هـ) من أبرز المؤرخين المصريين في العصر المملوكي، وهو صاحب التاريخ المعروف باسم ((تاريخ الدول والملوك))، ويحوي الكتاب مواد تاريخية هامة وغنية تتعلق بالمماليك لا سيما البحرية منهم، فمن خلال الكتاب يكشف لنا ابن الفرات عن مدى اهتمامه بالأحداث السياسية والإدارية والاقتصادية المتعلقة ببلاد الشام ومصر، على حين نجد أنه لم يعر القضايا الخارجية كل الاهتمام، ولكن لم تكن الاستفادة منه كبيرة بالنسبة للكتاب، وإنما كانت قليلة جداً بسبب عدم وجود مادة اجتماعية أو اقتصادية كافية تتعلق بالهجوم المغولي على بلاد الشام وبالتالي يمكن القول إنه يشكل مصدراً مملوكياً هاماً، بينما لم يأت بأي فائدة بالنسبة للكتاب ولم أعثر بين ثناياه إلا على بعض المعلومات المتعلقة بالبدو وأخبار اجتماعية بشأن الهجرة المغولية وحوادث متفرقة وردت عند مؤرخين آخرين، بينما كانت الفائدة معدومة بالنسبة للاقتصادي.

وكان عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ /١٤٠٦ م) من المؤرخين العرب الذين امضوا شطراً من حياتهم متنقلين بين مصر والشام. ويعرف ابن خلدون بأنه مؤسس علم الاجتماع من خلال المقدمة التي كتبها لتاريخه ((العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)).

تعتبر المقدمة من أهم الكتب العلمية على الإطلاق بفضل ما جاء فيها، وقد أفدت منها فيما يتعلق بالخلل الذي يطرأ على نظم الدولة ويضطرها لفرض الجبايات. ولا بد أن نشير إلى أن ابن خلدون ذكر في المقدمة تعريف التاريخ فقال: ((فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمى فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق))[1].

وهنا يجب أن يطرح سؤال هام وهو هل جاء كتاب العبر مطابقاً للنظرية التي طرحها ابن خلدون في المقدمة؟

إن المستعرض لتاريخ ابن خلدون يلاحظ أن المؤرخ لم يختلف نهجه عمن سبقه من أسلافه، فضلاً عن اعتماده على المصادر المعاصرة لبعض الفترات وتلخيصها وصياغتها بما يتلاءم مع أسلوب العبر، لكن يجب أن يذكر أن ابن خلدون دون كتابه بعد أن طاف في البلاد الإسلامية والأندلس.

فخلاصة القول أن ابن خلدون ناقض في كتابه العبر نظريته عن علم التاريخ في المقدمة، وبالتالي لم يكن الكتاب بمستوى المقدمة، فضلاً عن إسهابه بذكر تفاصيل قيام دولة المماليك الثانية تحت حكم الجراكسة، واقتصرت استفادتي منه في الفصل السياسي والبادية أثناء الكلام عن المواطن الأساسية للقبائل البدوية فقط.

وأطلعت على كتاب آخر له يدعى ((التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً)) والكتاب عبارة عن فصول تتعلق بموضوعات تاريخية متعددة أهمها بالنسبة لي لقاء ابن خلدون تيمورلنك عند حصار دمشق باعتباره كان أحد أعضاء الوفد المفاوض، وبالتالي اعتبر المؤرخ الوحيد الذي نقل ما دار بين أحد أعضاء الوفد وبين تيمورلنك حول دمشق، وهو المؤرخ الوحيد الذي ذكر أنه كان في نية تيمورلنك العبور إلى مصر عند ما طلب منه وصف شمال أفريقية، ومع أن ابن خلدون قدم معلومات وافية بهذا الصدد إلا أنه كان مقصراً في جوانب أخرى اجتماعية واقتصادية فلم يذكر حالة دمشق وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية، ولم يصف هجوم تيمورلنك عليها وما خلفه من أضرار مادية جسيمة.

الجدير بالذكر أن المؤرخ علاء الدين أبي الحسن بن خطيب الناصري(ت٨٤٣ هـ/١٤٣٩م)

١- ينظر مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار العودة، ١٩٨١م، ص ٢.

لا يقل أهمية عمن سبق من المؤرخين الشاميين، وأحب التنويه بأن كتاب ابن خطيب الناصرية عبارة عن مخطوط مؤلف من جزأين استعرته من مكتبة الدكتور سهيل زكار وهو نسخة مصورة. واسم المخطوط ((الدار المنتخب في تكملة تاريخ مملكة حلب)). لقد عانيت كثيراً حتى استطعت قراءة المخطوط سيما وأن الكلمات غير منقطة في بعض الأحيان وصغيرة. والمخطوط عبارة عن تراجم شخصيات سياسية وإدارية هامة، وقد استفدت من المخطوط في الحصول على بعض المعلومات الاجتماعية بصدد النزوح من المدن، والهجرة إلى مصر، إضافة إلى بعض الأشعار التي تتعلق بالهجوم، وبعض المعلومات السياسية المقتضبة

وتأثر المقريزي أحمد بن علي المصري المولد الشامي النشأة (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) بعدة مؤرخين منهم ابن خلدون. ويعد من أبرز مؤرخي مصر، تولى عدة مناصب سياسية هامة منها ديوان الإنشاء بالقلعة، ثم قاضياً عند قاضي قضاة الشافعية، فإماماً لجامع الحاكم، ومدرساً للحديث بالمدرسة المؤيدية، وبعد عودته إلى دمشق عمل ناظراً على أوقاف القلانسية والمارستان النوري، والتدريس بالمدرستين الأشرفية والإقبالية. صنف المقريزي كتباً هامة في التاريخ العام، وفي التراجم وفي النقود، وفي معالجة بعض المعضلات الاقتصادية وأهم هذه الكتب.

- السلوك لمعرفة دول الملوك.
- المقفى الكبير.
- البيان والإعراب فيمن نزل أرض مصر من الإعراب.
- شذوذ العقود في ذكر النقود.
- إغاثة الأمة بكشف الغمة.

يضاهي السلوك كتب التاريخ الإسلامي التي صنفت من قبل، وقد أراد أن يتمم له سلسلة مؤلفاته في التاريخ المصري الإسلامي من الفتح العربي إلى زمنه، فأضحى الكتاب أساساً للتأريخ لعصر الأيوبيين والمماليك.

اعتمد المقريزي على عدة مؤرخين في كتابه السلوك منهم ابن الفرات والبرزالي والنويري، وبيبرس الدوادار. وقد أورد معلومات هامة ومفصلة حول دخول المغول إلى بلاد الشام عند هجوم هولاكو وغازان وتيمورلنك، مع النتائج، ويصح القول إنه تفرد ببعض المعلومات التفصيلية التي لم يقدمها غيره من المؤرخين، فمثلاً وردت في سنة ٨٣٤ هـ واقعة تدل على انتشار الدراهم اللنكية في مصر، وهذا يدل على أن المغول أثناء هجوم تيمورلنك على بلاد الشام قد جلبوها معهم. كما انفرد المقريزي دون غيره بتسجيل ارتفاع قيمة الدرهم خلال سنة ٦٩٤هـ /

١٢٩٤م، وركز على مقدمات احتلال المغول لمدينة دمشق سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م ونتائج هذا الاحتلال دون الاهتمام بالاحتلال نفسه، ثم تضمنت سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م معلومات جديدة لم ترد عند غيره من المؤرخين، وهو الوحيد الذي أشار إلى استيلاء المغول على رأس الدربند وهو أحد المواقع الأرمينية[1].

ويخالف المقريزي من سبقه من المؤرخين الحوليين في ترتيب مادته التاريخية. وتفصيل ذلك أن المقريزي دون أحداث كل عام في فصل مستقل تحت عنوان باسم ذاك العام وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها باختصار. ثم جعل للسنة التالية عنواناً جديداً، وكثيراً ما بدا سنواته بذكر الوظائف الكبرى ومتوليها، هذا إذا جاء بدء السنة موافقاً لتسلم سلطان جديد الحكم الذي يتبعه تغيير وتبديل من الموظفين.

والجديد بالذكر أنني استفدت كثيراً من كتاب السلوك بجميع جوانب الكتاب، ولم استطع الاستغناء عنه في أي مكان منها على الرغم من أن بعض مواده وجدتها عند النويري في كتابه ((نهاية الأرب في فنون الأدب)). ويدل هذا على أن السلوك يحوي مادة إخبارية واجتماعية واقتصادية هامة جداً أمكن توظيفها بشكل مناسب ضمن الكتاب لكن بعد جهد وعمل مضن كون هذه الأخبار تخص المماليك أحياناً.

ويضاهي المقريزي مؤرخ مصر العظيم مؤرخ نبغ في بلاد الشام ويدعى ابن قاضي شهبة أبو بكر أحمد الأسدي الدمشقي (ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٨ م) كتب كتاباً أراده أن يكون ذيلاً لكتاب البداية والنهاية لابن كثير. واعتمد على من تقدمه من مؤرخي الشام مثل الذهبي والبرزالي وغيرها ثم اختصر الكتاب، لكنه لم ينشر منه إلا الجزء الثالث محققاً تحت عنوان: ((تاريخ ابن قاضي شهبة)). يبدأ الكتاب المحقق سنة ((٧٨ هـ وينتهي بسنة ٨٠٠ هـ)) ويقدم مواد غنية جداً تتعلق بتاريخ بلاد الشام ومصر، وقد خص بلاد الشام بمساحة أوسع، أمكن الاستفادة منه في جميع البحوث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وخصوصاً الإدارية فيما يتعلق بالنيابات والوظائف الإدارية، إلى جانب تفرده بمعلومات هامة عن التركمان المقيمين داخل حدود بلاد الشام.

ولم يكن أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) وهو عسقلاني الأصل مصري المولد، بأقل أهمية ممن سبق ذكرهم، فقد ألف عدة كتب في التاريخ العام وفي التراجم حوت حوادث الزمان منذ سنة ثلاث وسبعين حتى وفاته. وأهم كتبه

١- ينظر المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ١٦.

التاريخية على الإطلاق: ((أنباء الغمر بأنباء العمر)) وهو يقع في تسعة أجزاء، حوت حوادث كل سنة والأوضاع السياسية ثم أتبعها بوفيات الأعيان مستوعباً رواة الحديث. وغالباً ما أورد فيه مشاهداته. لكن الكتاب لم يعط لهجوم تيمورلنك على البلاد أهمية خاصة وإنما استعرض حوادثها بشكل عام ويماثل ما ورد عند ابن تغري بردي بل إن الأخير تفوق معلوماته معلومات العسقلاني. ومع ذلك أمكن الاعتماد عليه كثيراً بصدد تلك الحملة العسكرية وما تبعها من آثار اقتصادية خاصة المالية منها.

وكان من المؤرخين المعاصرين للمقريزي والمنافسين له محمد بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني ولد سنة ٧٦٢ هـ /١٣٦٢م في عينتاب وتوفي سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م. اختير لوظيفة الحسبة في القاهرة سنة ٨٠٢ هـ / ١٢٩٩م بدلاً من المقريزي فظل الأخير ناقماً عليه طوال حياته. تولى وظائف متعددة. وكان لإتقانه اللغة التركية أثر كبير في تقريبه من السلاطين المماليك وخاصة الأشرف برسباي. ولهذه الأسباب مجتمعة حصلت جفوة بينه وبني المقريزي وابن حجر العسقلاني.

خلف لنا العيني مؤلفاً ضخماً أسماه ((عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان)) وأهميته للبحث توازي أهمية السلوك بل وتفوقه أحياناً بما يحتويه من معلومات هامة، ولعل أهميتها أن العيني يشير بصراحة إلى المصادر التي اعتمد عليها ونقل عنها. ومن أهم تلك المصادر التي اعتمد عليها ابن كثير، بيبرس الدوادار واليوسفي والنويري والجشاعي والمقتفى للبرزالي، وثمة مصدر آخر اعتمد عليه العيني بشكل مؤكد وهو ذيل مرآة الزمان لليونيني.

أرخ عقد الجمان للأحداث التي عصفت ببلاد الشام منذ قدوم هولاكو وحتى مغادرة غازان لبلاد الشام ولم يكن العيني ناقلاً للأحداث بل ناقداً، وتجلت الاستفادة من الكتاب بشكل كبير، فقد أمكن العثور على مادة سياسية واجتماعية عامة أمكن توظيفها بعد تحليلها في الفصل الاجتماعي، إضافة إلى تقديمه مادة اقتصادية هامة لكنها لم تناسب أبداً حجم المادة الاجتماعية.

وينتمي جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٨٧٤ هـ / ١٤١٠-١٤٦٩ م) إلى جيل المؤرخين كالمقريزي وابن حجر العسقلاني والعيني. وجمال الدين مصري المولد والنشأة. أخذ عن مشايخ كثر مختلف علوم عصره بمصر والشام والحجاز، ولازم المقريزي والعيني ونهج منهجهما، واتبع أسلوبهما ونمطهما في التحصيل والكتابة.

ينتمي جمال الدين إلى طبقتين هما طبقة المعممين من أهل القلم، وطبقة أهل السيف.

واستطاع ابن تغري بردي كتابة مؤلفات عظيمة في التاريخ والتراجم أشهرها على الإطلاق ((النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)) و((المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي)).

ويعتبر كتاب النجوم موسوعة تاريخية هامة، وأهميته تأتي من كون مؤلفه يؤرخ بشكل موسع للعصر المملوكي، معتمداً أسلوب الحوليات. ويبدو أنه انتهج منهجاً مخالفاً لما سبقه من المؤرخين أمثال المقريزي إذ جعل كل عصر من عصور السلاطين والملوك فصلاً قائماً بذاته، وذكر السنين وحوادثها تباعاً من غير أن يجعل لها عناوين مستقلة، حتى إذا توفي السلطان أتى على أخباره مرة أخرى في ترجمة منفصلة وشرح أخلاقه وعوامل نجاحه أو فشله، ثم أعقب ذلك كله بترتيب سنوات العهد تريباً عددياً، وذكر وفيات كل منها في فصل واحد.

تأتي أهمية الكتاب بالنسبة للكتاب كونه سجل أحداث هجوم هولاكو وغازان وتيمورلنك بالتفصيل، وبهذا أطلعنا على الجو العام الذي عاشته البلاد، وما لحقها من اضطراب وفوضى وأضرار مادية وبشرية جسيمة، وبالتالي أمكن الاستفادة من مواده في جميع فصول الكتاب خاصة السياسية والاجتماعية منها.

وأحب التنويه إلى فضل محمد بن محمد بن الشحنة الحلبي (ت ٨٩٠ هـ) في سد بعض الثغرات في مواد الكتاب وخاصة الاقتصادية منها، وفيما يتعلق بتدمير المنشآت الدينية في مدينة حلب. وكان ابن الشحنة قد استفاد من علاء الدين بن الناصرية كونه صهره، كما استفاد من ابن حجر العسقلاني وغيره. وقد صنف مؤلفات عديدة تفيد النواحي الفقهية. كما ألف كتاباً في التاريخ أسماه ((الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب)) لكن لم يتبع هذا المؤرخ في تدوين الكتاب الطريقة الحولية، وإنما اختص بذكر تاريخ مدينة حلب فيما يتعلق بتسميتها واشتقاقها، وذكر عدد أبوابها، وجوامعها، وحماماتها وتربها ومزاراتها ودورها ومنتزهاتها.

وفي خاتمة الكتاب ذكر لمدن الشام المستقلة كحمص وطرابلس ودمشق وغيرها. ويرتكز ابن الشحنة على زيادة المعلومات التي أوردها ابن شداد عن تلك المدينة.

والاستفادة من ذلك الكتاب كانت تخص المنشآت الدينية التي جرى تدميرها من قبل المغول، وقد استفدت منه بشكل مقتضب في الفصل الاقتصادي في فقرة النفقات حيث ذكر ابن الشحنة من أنفق على عمليات الترميم ومقدارها.

ووجد المؤرخ الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م) في عصر حفل بالكثير من كتاب التاريخ في مصر والشام وهو عصر قل أن شاهدت كتابة التاريخ مثله في الكثرة العددية، سواء أكانت الكتابة تاريخاً بحتاً أو تراجم أو الاثنين معاً.

لقد عاصر ابن الصيرفي المصري المولد والمنشأ مؤرخي عصره كالمقريزي وابن تغري بردي وابن حجر العسقلاني والعيني والسخاوي وآخرين ولعله أطلع على مؤلفاتهم واستفاد منها وهكذا صنف مؤلفه الهام ((نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان)).

لقد اتبع المؤلف في تدوين هذا التاريخ نظام الحوليات الذي كان شائعاً في معظم كتب التاريخ الإسلامي، وختم كل سنة بوفياتها. وتناول هذا التاريخ مصر وبلاد الشام وما جاورها من البلدان. ويبدأ تاريخه بسنة ٧٨٤ هـ /١٣٨٢م وينتهي بسنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦م، ولعل المواد الموجودة في ثنايا هذا الكتاب هامة جداً بالنسبة لموضوع الكتاب خصوصاً فيما يتعلق بحملة تيمورلنك العسكرية على بلاد الشام وما أحدثته من آثار سلبية على المجتمع العربي، وعلى الرغم من أن ابن الصيرفي قد اعتمد الأسلوب الأدبي الموشى بالسجع والمحسنات اللفظية في وصف بعض الصور الاجتماعية إلا أنها كانت معبرة ودقيقة، وأمكن الاستفادة منها بشكل كبير. على العموم قدم الكتاب معلومات غنية سياسية واجتماعية واقتصادية وضعتها في موضعها الصحيح.

واعتمدت أيضاً على كتاب آخر للصيرفي يحمل عنوان ((أنباء الهصر بأنباء العصر)) هذا الكتاب يسير فيه مؤلفه حسب التسلسل الزمني، وعلى الرغم من أن الكتاب يتناول فترة زمنية بعيدة نوعاً ما عن تاريخ الكتاب، إلا أنني أرغمت على الإطلاع عليه لتتبع أعمال التركمان التي نشطت أثر حملة تيمورلنك على بلاد الشام، واستطعت استعراض الحملات المملوكية ضد الدويلات التركمانية واستفدت منها فيما يخص التركمان بالذات. وأمدنا محمد بن أحمد بن إياس ت (٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م) بمعلومات تاريخية هامة وغنية متضمنة في كتابه ((بدائع الزهور في وقائع الدهور)). وابن إياس مصري المولد والمنشأ، ولد سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م بالقاهرة، أي قبل وفاة ابن تغري بردي، مع أن كليهما ينحدر من أسرة مملوكية وإن برز ابن إياس أكثر عراقة من ابن تغري بردي، فهو يشير إلى أن جد والده الأمير عز الدين أزدمر العمري الناصري من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، تسلم مناصب متعددة. كما أن جده الأمير إياس الفخري الظاهري كان أحد مماليك الظاهر برقوق، ترقى في المناصب حتى تسلم وظيفة الدوادارية أيام الناصر فرج. وبالتالي يتضح أن ابن إياس نشأ في وسط مملوكي بحت باعتباره أحد أولاد الناس.

ويعتبر كتاب بدائع الزهور أحد المصادر الهامة لعصر المماليك الجراكسة وأوائل العصر العثماني وهو يقع في أحد عشر جزءاً. يتناول حقبة زمنية تمتد من بدء التاريخ حتى سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢١م وهي سنة وفاته.

جمع ابن إياس أسلوبي المقريزي وابن تغري بردي في تقسيمه لكتابه بدائع الزهور، إذ قسمه إلى عهود مستقلة وأشار إلى السنين بعناوين واضحة، لكنه شذ عنهما بعدم ترتيبه الوفيات ترتيباً تاريخياً منفصلاً مثل أسلوب ابن تغري بردي، ولم يكتبها في نهاية السنين كما فعل المقريزي، بل أشار إليها بإيجاز.

وهناك مآخذ عديدة على ابن إياس منها عدم توخي الدقة أثناء نقله عمن سبقه من المؤرخين، كما أن تعليلاته لبعض القضايا تبدو ممسوخة بعض الشيء، فمثلاً يذكر في أحداث سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩م أسماء علماء دمشق الذين توجهوا لمقابلة غازان مع عدم الاهتمام بدخول المغول على دمشق وما أحدثوه من خراب ودمار وأضرار مادية وبشرية، كما ذكر مقدار النفقة على الجند المصري قبل توجههم نحو الشام ولم ترد هذه المعلومات الا عند العيني في عقد الجمان.

ومن المؤكد أن الاستفادة من هذا الكتاب كانت متعددة، فقد أفرد بعض المعلومات التي تخص الطرق التي يشكلها المهاجرون إلى مصر عن طريق البر والبحر، كما أمكن الاستفادة منه في الفصل الاجتماعي فيما يتعلق بالقتل والأسر والتعذيب، والناحية الدينية أيضاً.

يمتاز العصر المملوكي أيضاً بعدد كبير من كتب السير. ولعل الدوافع للتوجه لكتابة السير ما امتاز به العصر من أعمال بطولية كانت تتطلب تأريخ ذلك فتمجد شخصية البطل وتسلط الأضواء عليها لتندرج ضمن أخباره وأخبار الفترة التي يعيشها الكاتب وكان التأليف في السير يقوى تبعاً لأهمية الشخصية المؤرخ لها، ولقوة الكاتب. ومدى إيمانه بالموضوع الذي يعالجه، أو يضعف لضعف في هذه النواحي.

والملفت للنظر أن العصر المملوكي امتاز بحظ وفير من كتابة السير أهمها على الإطلاق السيرة التي كتبها عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد (ت ٦٨٤هـ/١٦٨٥م) ((تاريخ الملك الظاهر)). يعتبر ابن شداد مؤرخاً وجغرافياً ولد بحلب وعاش فيها حتى كان الهجوم المغولي على المدينة سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م فهاجر إلى مصر وانخرط في خدمة الظاهر بيبرس.

يتناول تاريخ الظاهر بيبرس سيرة السلطان بيبرس البندقداري، ولم تصلنا كاملة وإنما بين أيدينا الجزء الثاني الحاوي لأخبار سنوات ٦٧٠-٦٧٦ هـ / ١٢٧٢م - ١٢٧٨م.

قسم ابن شداد السيرة (الكتاب الموجود بين أيدينا)) إلى ثمانية وعشرين فصلاً، أتبعها بلائحة تذكر خصال السلطان وإنجازاته وأوصافه الحسنى. وراعى أتباع المنهج الحولي حسب

السنين وكذلك حسب الموضوعات والأحداث، وهو في تاريخه يذكر الحادثة مع الشهر واليوم الذي حدثت فيه معتمداً هذا النمط حتى وفاة السلطان سنة ٦٧٦ هـ. وقد اعتمد في أسلوبه الكتابي على السجع الذي كان يأتي أحياناً سهلاً وطبيعياً. وتناول في مؤلفه سياسة بيبرس الداخلية، وكيف وطد حكمه، وإلغاء بعض الضرائب التي امتعض منها الرعية. أما على الصعيد الخارجي فقد ذكر استيلاءه على معاقل الإسماعيلية، ومعاقبته للنوبيين، وتوجيهه الحملات العسكرية ضد الأرمن مع ذكر مواجهة المغول وخاصة في الأبلستين.

اقتصرت الاستفادة من الكتاب على المدخل السياسي لأنها تخص الظاهر بيبرس فقط، مع معلومات بسيطة توزعت على معظم الفصول، فقد ذكر مثلاً مقدار الإقطاعات التي أعطيت لأمراء البدو.

وكان ابن عبد الظاهر (محي الدين أبي الفضل ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م) من أهم المؤرخين المصريين الذين اعتمدت عليهم في البحث. وكان كاتباً في ديوان الإنشاء بالقاهرة عندما تولى الظاهر بيبرس عرش السلطنة، وقد اشترك في موقعة عين جالوت إلى جانب المظفر قطز، واستمر ابن عبد الظاهر في مركزه بديوان الإنشاء طوال فترة حكم بيبرس وأثناء حكم ابنيه، وجزء من فترة حياة قلاوون وابنه الشرف خليل.

دون ابن عبد الظاهر عدة سير أهمها ((الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر)) كتبها للظاهر بيبرس، وسيرة ((تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور)) كتبها للمنصور قلاوون، والكتاب الثالث أو السيرة الأخيرة ((الألطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية)) كتبها للأشرف خليل.

ومما دفع المؤلف إلى تدوين سيرة الظاهر العصر الذي عاش فيه الظاهر، حيث اشتد النزاع بين المسلمين والفرنجة، وبين المسلمين والمغول، لا سيما أن الظاهر بيبرس كان أول شخصية مملوكية هامة أرست قواعد السلطة أثر الانتصار العظيم في عين جالوت، وأول شخصية مملوكية خطط لاسترداد المعاقل العربية الإسلامية من يد الصليبيين ونجح في ذلك، وحوّل الخوف من الفرنجة في المنطقة من قبل العرب إلى ذعر بالنسبة للصليبيين عندما أخذت جيوشه تجتاح تلك المعاقل والمدن. وبالتالي وضع اللبنة الأولى لاستئناف حروب الاسترداد التي أكملها من بعده المنصور قلاوون ثم ابنه الأشرف خليل. وألقت سيرة الظاهر في "الروض" ضوءاً ساطعاً على عصر بيبرس، ولولا هذه السيرة مع سيرة ابن شداد ومختصر شافع بن علي ((حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية)) لأصبحت المعلومات عن بيبرس مقتضبة جداً.

وأضفى ابن عبد الظاهر في عمله بديوان الإنشاء الثقة على كتاباته، فقد جعله على اتصال دائم مع بيبرس، وازداد تقربه منه حتى خصه ببعض الأمور المهمة.

كان منهج ابن عبد الظاهر يسير وفق طريقة حولية فقد جعل الحوادث مرتبة حسب السنوات، فكان يضع كل سنة وتحتها عناوين فرعية تشير إلى طبيعة الحوادث، وظل معتمداً هذا النمط حتى وفاة الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦ هـ. وفي بعض الأحيان لم يغفل عبد الظاهر ذكر اليوم والشهر وأحياناً الوقت من النهار.

وتقسم المصادر التي اعتمدها ابن عبد الظاهر في سيرته إلى قسمين: مصادر شفهية، اعتمدت على عدة أشخاص بارزين أيام السلطان، ومصادر كتابية، فقد اعتمد على معلومات البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) وعلى غيره. واعتمد ابن عبد الظاهر أسلوب السجع، وقد أبدى بعض الباحثين التذمر من أسلوبه فذكروا أن جمله في بعض الأحيان غير مترابطة، إضافة إلى عدم إتقانه لاستعمال الضمائر وحروف الجر.

ولكن مهما كانت الآراء فإن معظم معلوماته أتت على نحو كبير من الأهمية، وقد استفدت منها في جميع فصول الكتاب، في المدخل السياسي وخاصة ما يتعلق بالصليبيين واقل منها في الاجتماعي والاقتصادي بما يتعلق بالإقطاع والأوقاف والضرائب المستحدثة والثابتة.

وفي الجانب الآخر مثّل كتاب "تشريف الأيام: حياة المنصور قلاوون، والكتاب يبدأ بسنة ٦٨٠ هـ إلى وفاة قلاوون، غير أن محقق الكتاب استعان في تمهيد الحوادث التي سبقت ٦٨٠هـ من ابن الفرات وذلك من سنة ٦٧٨ هـ.

وكان منهج ابن عبد الظاهر في التشريف يماثل الروض، حيث أرخ بالسنوات، ووضع تحت كل سنة عناوين صغيرة تشير إلى الموضوع الذي سيتحدث عنه وكانت مدى الاستفادة منه تتمثل في بعض المعاهدات المعقودة بين المماليك والصليبيين، إضافة إلى معلومات سياسية أخرى.

أما قطعة الكتاب الثالث (الألطاف الخفيفة)) فإن الإفادة منها كانت ضعيفة جداً وتكاد تكون محصورة باستخدامها مرة أو مرتين في المدخل السياسي.

ولم يقتصر تدوين السير على ابن عبد الظاهر بل اقتحم هذا الميدان موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المصري. ولد اليوسفي بالقاهرة سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧م، وتوفي بها سنة ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م تولى مناصب هامة منها مقدم الحلقة المنصورة في الجيش المملوكي المقيم بالقاهرة،

شارك في معارك المسلمين ضد المغول ومنها موقعة الخزندار سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠م ضد التتار وهي معركة انتهت بهزيمة المماليك ودخول المغول لدمشق، كذلك شارك في غزو بلاد الأرمن ما بين سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧م حيث قدم لنا معلومات فريدة عنها.

ألف اليوسفي عدداً من الكتب استخدمنا منها في الكتاب كتاب ((نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر)) وهو مصنف في التاريخ يبدأ بأيام المنصور قلاوون وينتهي إلى سنة ٧٥٥هـ ويقع في خمسة عشر جزءاً فقد معظمها، ولم يصل إلينا سوى الجزء الذي نحن بصدد دراسته.

انتهج اليوسفي في كتابه طريقة الحوليات في إطار وحدة موضوع متمثلة بالسيرة السلطانية، وكان السلطان موضوع تاريخه والحوادث مرتبة على السنين، بحيث يتعرض لسنة بعد أخرى مبتدئاً بسنة ٧٣٣ هـ شارحاً أهم أحداثها، وما يكون قد تم فيها وتغير في بعض مناصب الدولة الكبرى كالنيابة والوزارة، ثم يختمها بذكر تراجم أعيان من توفي فيها.

اعتمد اليوسفي في كتابة تاريخه على المشاهدة والملاحظة فهو يؤرخ لفترة عايش معظم أحداثها، ويعتمد أيضاً على الرواية الشفوية من أصدقائه ومعارفه وما سمعه. وهناك مآخذ عديدة على اليوسفي منها أنه جزأ الحادثة التاريخية التي لا تنتهي عند سنة واحدة، بل تمتد وتتواصل إلى عدد من السنين تقيداً منه بالمنهج الحولي فتأتي الحادثة بذلك مقسمة مجزأة، مثال ذلك ما أورده اليوسفي من أخبار المغول مبعثرة سنة ٧٣٤ هـ و٧٣٧ هـ، وأخبار التجريدة إلى بلاد الأرمن امتدت ما بين سنة ٧٣٧ هـ، و٧٣٨ هـ. وقياساً لمعظم المؤرخين فقد ركز اليوسفي على الحدث دون الاعتناء بالتحليل والتفسير مع أنه حاول احياناً استقصاء الأسباب وتحري الحقائق. وأمكن التقاط إشارات هامة توزعت على فصول الكتاب وخاصة فيما يخص البدو، والأرمن، وأوضاع التجار في ارمينية.

وانعكس الهجوم المغولي على بلاد الشام بشكل مباشر على هجرة بعض المؤرخين أمثال أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي نصر محمد بن عربشاه الدمشقي الأصل (ت ٨٥٤ هـ) ولد بدمشق سنة ٧٩١ هـ، ونشأ بها وتضاربت روايات المصادر حول خروج ابن عربشاه من دمشق فإحداها ذكرت أنه عندما هاجم تيمورلنك بلاد الشام هاجر ابن عربشاه مع أخوته وأمهم وابن أخته إلى سمرقند ثم ذهب بمفرده إلى بلاد الخط، وأقام ببلاد ما وراء النهر وتلقى العلوم من الأستاذين محمد الجرجاني، وابن الجزري نزيلا سمرقند. بينما ذكرت أخرى أنه أسر مع أهله ونقل إلى سمرقند وعلى أية حال عاد ابن عربشاة إلى حلب سنة ٧٢٤ هـ وانتقل منها إلى دمشق واستقر فيها سنة ٧٢٥ هـ. وكان طبيعياً أن يؤلف كتاباً يعد أهم المؤلفات العربية يتناول سيرة

وحياة القائد المغولي تيمورلنك، وهو بعنوان (عجائب المقدور في نوائب تيمور)

يحتوي الكتاب على معلومات غنية وثمينة بالنسبة لهجوم تيمورلنك على بلاد الشام أمكن الإفادة منه في الفصل الاجتماعي والاقتصادي وأخص الاقتصادي أكثر من الاجتماعي. فهو يعرض لنا بأسلوب أدبي يعتمد فيه السجع أعمال المغول الهمجية، ولا يتوانى عن نعتهم بالألفاظ القاسية وربما مرد ذلك إلى المعاناة التي عاناها مع أسرته خارج بلاده. فهو يذكر لنا عن نهبهم للبيوت، وتعذيب السكان، وقتل الأطفال، وينفرد بحوادث لم يذكرها غيره في هذا المجال، كما أنه عدد لنا مهن الأسرى الذين اقتادهم تيمورلنك إلى سمرقند.

لقد وظفت معلوماته بشكل كامل في ثنايا الكتاب لما لها من فائدة كبيرة، ولما تبديه من همجية المغول وبربريتهم التي لا مثيل لها، والتي نجم عنها بشكل مباشر اغتيال الحضارة العربية الإسلامية في المنطقة.

ويمكن لنا في هذا المقام أن نتحدث عن الموسوعات التاريخية التي مثل تيارها خير تمثيل أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) أحد الموسوعيين البارزين الذين قدموا لنا معلومات إخبارية هامة عن الهجوم المغولي على بلاد الشام في مؤلفه الضخم المعروف باسم ((نهاية الأرب في فنون الأدب» وهو أشبه بدائرة معارف واسعة تحتوي على جميع أنواع المعرفة اللازمة لطبقة الكتاب، وتعتبر معلوماته موثوقة باعتباره شغل وظائف عديدة في الجهاز الإداري المملوكي منها ناظر لأملاك السلطان محمد سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١م، وناظر ديوانه الخاص ووظائف أخرى متعددة. ويتضح من نصوص نهاية الأرب أنه نقل عن بيبرس الدوادار مع إجراء بعض التغييرات الطفيفة - والواضح أن النويري لم يستعن فقط بمؤلفات بيبرس الدوادار، وإنما استعان بمؤلفات معاصريه من أمثال ابن الدواداري والمؤلف المجهول لا سيما فيما يتعلق باحتلال المغول لدمشق سنة (٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م). فهو يضمن تاريخه بعض المعلومات القليلة بصدد محاولة ابن تيمية استمالة أهل جبل الصالحية لجانبه الأمر الذي يشير بأنه ولا بد قد استعان بمصدر ثالث لعله المصدر الذي أخذ عنه ثلاثتهم.

ويعتبر كتاب نهاية الأرب من أشهر الموسوعات التاريخية العلمية فهو يشمل ثلاثة وثلاثين جزءاً طبع منها واحد وثلاثون، يضم الجزآن الأخيران أحداث العصر المملوكي بدءاً بسنة ٦٥٨ هـ واستفدت من هذا الكتاب أيما فائدة حتى أنني وجدت أهميته تفوق "السلوك" أحياناً، ولا يخفى أن المقريزي قد نقل عنه، لذلك فقد وجدت فيه مادة غزيرة وغنية ولكنها إخبارية، وبعد تحليل الصور كاملة أمكن الاستفادة منه في جميع فصول الكتاب: السياسي، وخاصة

الاجتياح المغول لبلاد الشام، وهروب الأمراء والمماليك ولجوئهم إلى المغول مثل قبجق، قراسنقر المنصوري، إلى جانب الفصل الاجتماعي المتمثل في الهجرة من بلاد الشام لمصر، قدوم الوافدية من المغول إلى مصر، أحوال هؤلاء المهاجرين، عبث الحرافشة في البلاد أثناء الاجتياح المغولي، الحديث عن أوضاع الفلاحين، وبالنسبة للاقتصادي كانت له فائدة لكنها أقل من الاجتماعي فقد اعتمدت عليه في فقرة الإقطاع والأوقاف والرشوة والضرائب المستحدثة والطارئة.

ويعد كتاب ((مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى ابن فضل الله العمري (ن ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م) من اشهر الكتب العلمية التاريخية الموسوعية. والتي استفدت منها بشكل كبير في البحث نظراً لكون مادة العمري موثقة بنتيجة المناصب السياسية التي شغلها مثل كتابة السر بالشام في عهد الناصر محمد وقراءة الرسائل وغير ذلك من مناصب رفيعة.

يعد كتاب مسالك الأبصار دائرة معارف واسعة ضمنها شيئاً من التاريخ يبدأ من عصر الهجرة ويمتد حتى سنة (٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م)، غير أن الكتاب غير متداول طباعياً وما بين أيدينا أقسام يسيرة منه، منها ما يتعلق بقسم القبائل البدوية الموجودة في بلاد الشام ودورها السياسي. وقد استفدت من كتاب القبائل فائدة كبيرة وتجلت فائدته في فصل البادية. حيث ذكر العمري بالتفصيل أسماء القبائل البدوية المنتشرة في بلاد الشام، وأعمالها.

واعتمد شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) على ما كتب العمري في موسوعته الشهيرة ((صبح الأعشى في صناعة الإنشا))، فهو فصّل ما اختصره العمري في كتاب ((التعريف بالمصطلح الشريف)) وقدم لنا معلومات جغرافية وإدارية هامة في موسوعته لم نستطع الاستغناء عنها نهائياً. كما أن القلقشندي قام بنقل مواد العمري المتعلقة بالقبائل العربية وأودعها في كتاب ((قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان» ومعلوماته متت معلومات العمري، فقد اتبع القلقشندي في كتابه القلائد خطة منهجية بدأها بالحديث عن أصل كل قبيلة بدوية منذ نشوئها حتى عصره وما تفرع عنها وأماكن استيطانها، واستفدت منه كثيراً في فصل البادية.

ويشد انتباه الباحث في كتب الإدارة فوائد هامة كونها تبرز العلاقة المتبادلة بين الشعب والسلطة، وقد برزت في العصر المملوكي كتب إدارية هامة عكست صورة الأوضاع الإدارية للمجتمع فكان لهذه الكتب أيما فائدة في إيضاح المثالب والمحاسن للإدارة المملوكية. ومن

خيرة الكتب المتداولة والتي استخدمتها خلال البحث التعريف بالمصطلح الشريف لشهاب الدين العمري يحوي الكتاب معلومات إدارية هامة جداً تتعلق بالهيكل السياسي والإداري للدولة وقد أمكن الاستفادة من معلوماته في الوضع الإداري لنيابات بلاد الشام (حدودها وظائفها، طرق البريد) إلى جانب ما ورد عن الوصايا المتعلقة بأهل الذمة، ويعد الكتاب أقدم الكتب في ميدانه.

ومن الكتب الإدارية الأخرى التي أغنت البحث كتاب ((زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك)) لفرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م). الذي يحوي مادة إدارية هامة، فقد قسم الكتاب إلى أبواب ولكل باب عنوان فيما يخص الوضع الإداري وقد تكلم المؤلف بشكل مسهب عن نيابات بلاد الشام وأوضاعها الإدارية ولكنها لم تكن بمستوى ما أورده العمري في التعريف أو القلقشندي في موسوعته، ومع ذلك أمكن الاستفادة من معلوماته بما يخص الوضع الإداري.

وهناك صنف آخر من الكتب التي اعتمدت عليها وهي كتب فقهية دينية. ولئن قدم المؤرخون في هذه الفترة مادة تاريخية هامة إلا أنهم لم يكونوا على دراية كاملة بقضايا المجتمع وخاصة الدينية، فقد اكتفى المؤرخون بذكر القضاة وبعض أعمالهم، بينما تصدى الفقهاء لتدوين مثل هذه الأعمال وأنتجوا مجموعة من الكتب اتسمت بالطابع الديني وأخص بالذكر كتاب (غوارف المعارف) للسهروردي الذي عالج مواضيع هامة مثل التصوف الإسلامي، فأغنى السهروردي البحث بمادته الهامة حول شروط ساكن الرباط وغير ذلك من الشروط التي تخص المريدين.

ويضاف إلى كتاب السهروردي كتاب آخر أكثر أهمية وقضاياه أشمل عمومية وهو كتاب (فتاوى السبكي) للعالم تاج الدين السبكي (ت ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م). والكتاب عبارة عن قضايا هامة تخص مجموعة من أفراد المجتمع طرحوها على ابن السبكي للإفتاء فيها، فأصدر ابن السبكي هذه الفتاوى وجمعها في كتاب. والفتاوى تشمل مواضيع عامة منها دينية ومنها اجتماعية. وقد أمكن الاستفادة من بعض الصور الاجتماعية التي تعكس جوانب هامة في المجتمع، وأمكن تحليلها والاستفادة منها في القضايا الاجتماعية مثل الفتوة، والقضايا الدينية وما يتعلق بأهل الذمة، إضافة إلى أنني استفدت منها في فقرة الرشوة في الفصل الاقتصادي.

يضاف إلى مجموعة الكتب الفقهية الواردة فيما مضى كتاب ((البحر المورود في الوصايا والعهود) للشعراني، وقد استثمرت مواده التي تخص التصوف بالذات، ومن المفيد القول بأن

المواد الموجودة في الكتاب لم أعثر عليها في أي كتاب آخر سوى أن زكي مبارك نقل عنه معلومات وظفها لدراسة المجتمع المصري الذي كان يشابه المجتمع الشامي آنذاك، وبذلك أمكن الاستفادة منها كليهما.

وظهرت بعض الكتب التخصصية في الناحية الدينية ككتاب (إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش) للفقيه أحمد بن عماد بن محمد بن يوسف الأقفهسي الذي ولد سنة (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) في بهنسا بمصر وتوفي بها سنة ٨٠٨ هـ. تلقى العلم عن عدد كبير من الشيوخ أمثال الأسنوي والبلقيني والباجي. يتناول كتابه المذكور قضية الخمر والحشيش، فقد ناقش في كتابه أسماء الخمر وأحكام متعاطيها وأنواعها ولا أبالغ إن قلت إنني استفدت منه كثيراً في فقرة الخمر والحشيش وأهل الذمة أيضاً.

فقد عرضت قضية تناول الخمور وبيعها بين أفراد المجتمع ثم أوردت أقوال الأقفهسي التي أخذها عن علماء وفقهاء غيره وناقشها، فمثلاً يقول في إحدى القضايا: قال القرافي، أو قال ابن البيطار، وأمكن توظيف مادته في الفصل الاجتماعي.

ولعل تفرد دمشق بعدد كبير من المدارس الفقهية والزوايا والأربطة بين المدن الأخرى سواء في بلاد الشام أو خارجها دفع الكثير من العلماء والمؤرخين لتدوين إنشاء هذه المؤسسات الثقافية، وكان من بينهم عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي ولد سنة (٨٤٥ هـ سنة ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) كان النعيمي محدثاً، محققاً، لقب شيخ الإسلام، ألف كتباً كثيرة منها ((دور القرآن في دمشق) والكتاب عبارة عن ذكر لدور القرآن التي أنشئت في دمشق مع ذكر مؤسسيها، محدثيها، خرابها على يد المغول إن حصل ذلك، وأمكن الاستفادة منها بما يخص الناحية الدينية والاجتماعية بما فيها سبب إقبال السلاطين والأمراء على إنشاء مثل تلك الدّور. ولما لم تكن عدد دور القرآن في دمشق مساوية لعدد المدارس فإنه صنف لها كتاب يحمل عنوان (الدارس في تاريخ المدارس)، يتناول الكتاب المدارس الفقهية بالتفصيل موقعها، منشأها، المدرسين بها، المعيدين، ويذكر أحياناً خرابها واندثارها نتيجة الهجوم المغول عليها، وقد أمكن الاستفادة من المواد التي عرضها النعيمي في الأوقاف، والطرق التي كفلت العيش الدائم للطلبة، إلى جانب الإفادة منها في الفصل الاقتصادي بما يخص الإنفاق على المعاهد الثقافية وبنائها مرة أخرى بعد خرابها على يد العدو المغولي.

وأرى الزما علي أن أذكر صنفاً آخر من الكتب ساهم في تقديم مادة إخبارية واجتماعية هامة سدت جوانب النقص في معلومات الكتاب وهي كتب التراجم. ومن أهم هذه الكتب

((الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لابن حجر العسقلاني، فهو كتاب شامل لأعيان العصر من علماء وفقهاء وتجار وقادة سياسيين. ينهج ابن حجر في تأريخه الترتيب الأبجدي فهو يبدأ ترجمة شخصياته بالحروف الأبجدية، وقد أمكن الاستفادة منه كثيراً في الفصل الاجتماعي خاصة أسماء الذين هاجروا من بلاد الشام إلى مصر إثر كل هجوم مغولي، كذلك من نزح من المدن والأرياف، وأغنى جوانب الكتاب في ذكر أسماء من عذب على يد العدو المغولي، وأساليب التعذيب، وأسماء من فقد أهله وماله إلى جانب الأسرى، كما أفدت منه في الوضع الإداري.

وأهمية (المقفى الكبير) للمقريزي تفوق أهمية الدرر الكامنة نتيجة لوفرة المعلومات الإخبارية عن الشخصيات المترجم لها، فقد اعتمد المقريزي على دراسة شخصية، مولدها، منشئها، أعمالها، فمثلاً أثناء الحديث عن ابن تيمية ذكر وبالتفصيل عن المقابلة التي تمت بينه وبين غازان وقد استفدت من هذه المناقشة في المدخل السياسي، كما كانت الإفادة من معلوماته في الفصل الاجتماعي بما يتعلق بأسماء الشخصيات التي هاجرت إلى مصر أو التي تولت مناصب سياسية وإدارية هامة.

ويعتبر كتاب ابن تغري بردي ((المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي)) من كتب التراجم الهامة في العصر المملوكي. يقع الكتاب في ستة أجزاء جمع فيه المؤلف ثلاثة آلاف ترجمة لمشاهير العلماء والأمراء والسلاطين الذين عاشوا في مصر والشام في دولة سلاطين المماليك الأولى والثانية، بالإضافة إلى من عاصرهم من مشاهير المشرق والمغرب من المسلمين وغير المسلمين. ويستهل ابن تغرى بردي كتابه بترجمة المعزأيبك، ويتبع الترتيب الأبجدي لأسماء المشاهير الذين توفوا بين منتصف القرن السابع والقرن التاسع الهجري. ولا شك أن الفائدة التاريخية كبيرة بالنسبة لهذه التراجم، بينما لم تكن بالمستوى المطلوب فيما يخص الناحية الاجتماعية والاقتصادية. وقد ذكرت الفائدة في أماكن متفرقة من الكتاب.

وكان شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي بارعاً في مجال التدوين التاريخي فترك لنا مؤلفات عديدة تتسم بالفائدة والضخامة أشهرها كتاب التراجم المسمى (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ويتضح من عنوان الكتاب أنه يختص بتراجم القرن التاسع الهجري، ومن المعروف أن السخاوي اتصف بثقافته العالية نتيجة لتلقيه العلوم المتعدد إلى جانب رحلاته إلى بلاد الشام وخصوصاً حلب ودمشق وبيت المقدس.

ومؤلفه "الضوء اللامع" عبارة عن ترجمة لشخصيات أدبية، علمية، فقهية، سياسية.

ولم يقف السخاوي عند جنسية هؤلاء بل أورد سيرتهم سواء كانوا من الروم أو من الهند أو من المشرق أو المغرب. والكتاب عبارة عن اثني عشر جزءاً كانت الاستفادة منه تخص الأشخاص الذين هاجروا لمصر عند هجوم تيمورلنك على بلاد الشام أو الذين فقدوا ثرواتهم، أو الذين عذبوا من قبل العدو المغولي.

والجدير بالذكر أنني استعرضت محتويات كتاب ((البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع). للعلامة محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ)، وهو كتاب تراجم لأشهر الأعلام في مصر واليمن والشام، لكنه يركز على اليمن أكثر من البلدان الأخرى. سار الشوكاني في التراجم حسب التسلسل الأبجدي، ويتجلى بوضوح من خلال الكتاب أنه نقل عن ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة، وكانت الاستفادة منه ضئيلة جداً واقتصرت على أماكن متفرقة في الفصل الاجتماعي.

ومثلما نشط العلماء العرب في مجال التاريخ، نشطوا في مجال الجغرافية والرحلات ولكن بشكل أقل وهم ليسوا بعدد المؤرخين، واستأثرت بلاد الشام باهتمامات هؤلاء الرحالة حتى أنه لم يبق رحالة إلا ودخل بلاد الشام وأطلع على معالمها الثقافية والحضارية، ومن أشهر الرحالة في فترة البحث أبو عبد الله محمد بن العبدري الحيحي.

قام العبدري برحلته وهو لا يزال في مقتبل العمر، كان خروجه من حاحة سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م، فسار إلى تونس، طرابلس، ثم إلى مصر براً ومنها إلى بلاد الشام فمر بأطراف البلاد الجنوبية (فلسطين) ثم عاد ثانية إلى بلاده. أودع العبدري في مؤلفه مشاهداته الشخصية، فكان يصف المحلات والمدن التي يمر بها ويذكر أحوال أهلها، وقد ركز أثناء وصفه للمحلات على العلم والحركة العلمية. وإذا كان العبدري قد أسهب في الكلام عن المحلات أثناء توجهه إلى شمال إفريقية وبلاد الشام، فإنه اختصر الكلام في وصف القرى والمدن التي مر عليها، أثناء رجوعه. كانت الفائدة من رحلة العبدري قليلة جداً واقتصرت على معلومات ضئيلة تتعلق بنيابة غزة وحدودها الإدارية ومع ذلك وظفتها بمكانها المناسب.

والواقع أنه زار بلاد الشام في العصر المملوكي رحالة عربي آخر هو ابن بطوطة محمد بن إبراهيم اللواتي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) الذي أودع مشاهداته في كتاب هام استعرض فيه المدن والقرى التي مر بها في مصر وسورية وجزيرة العرب وأفريقيا الشرقية وآسيا الصغرى وغيرها من البلدان الأخرى، خاصة أن رحلته استغرقت زهاء تسع وعشرين سنة. ولا شك أن معلوماته كانت أكثر فائدة من العبدري، فابن بطوطة اعتمد في وصف المدن على أهم

معالمها الحضارية ومزروعاتها الشهيرة، وحكامها السياسيين، فرحلة ابن بطوطة تقدم فائدة كبيرة للباحث في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، بينما لم تقدم الفائدة المرجوة منها للكتاب، فاقتصرت الاستفادة على بعض المعلومات الواردة عن الزوايا والأربطة المنتشرة في بلاد الشام، إضافة إلى الاستفادة منها في بعض المعلومات الواردة عن زراعات وصناعات مدن الشام.

ويصنف كتاب شيخ الربوة محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت٧٢٧ هـ /١٣٢٧م) بين الكتب الجغرافية الهامة التي أمكن الاستفادة منها في البحث وعنوانه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) فهو يتضمن معلومات دقيقة ومفصلة عن نيابات بلاد الشام، وقد أفدت من معلوماته عن المناطق التي نزلها التركمان في سورية، إضافة إلى أسماء قرى دمشق داريا والمزة والتي وظفتها خير توظيف في فصل الأرياف، وبهذا يمكن القول إنه كتاب جغرافي هام أمكن الاستفادة منه في أماكن متفرقة.

ويعد كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء من الكتب الجغرافية الهامة، لما يحويه من معلومات مفصلة حول بلاد الشام، لكن هذه المعلومات قديمة استقاها من مصادر مبكرة، لذلك لم أتمكن من الاعتماد عليه بشكل كبير وذلك لانعدام الفائدة من المواد الجغرافية التي قدمها، وأمكن الاستفادة فقط حول تعريف بعض المناطق.

ويمكن أن نتحدث أيضاً عن مجموعة من الكتب ذات هوية خاصة منها كتاب (معيد النعم ومبيد النقم) لتاج الدين السبكي وقد أمكن العثور على معلومات ذات مضامين اجتماعية أمكن الاستفادة منها في الحديث عن وضع الفلاح وعن الإقطاع أيضاً.

ولكن المعلومات ذات المضامين الاقتصادية تمثلت في كتاب ((إغاثة الأمة بكشف الغمة)) للمقريزي فهو يعالج أسباب الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها الدولة المملوكية التي كان من أهمها الخلل النقدي الذي أدى إلى التضخم وغيره من المواضيع التي أمكن الإحاطة بها في الفصل الاقتصادي. ويماثل كتاب محمد بن محمد بن خليل الأسدي: ((التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار) كتاب إغاثة الأمة للمقريزي في موضوعاته ولكنه يفوقه أهمية في المعالجة. فالكتاب يبحث في الوضع الاقتصادي الفاسد، وكثرة الضرائب المالية التي تثقل كاهل الرعية، وتوفير سبل الحياة الرغيدة. وأمكن استثمار المعلومات المتعلقة بالخلل الذي يطرأ على الهيكل الاقتصادي والمتعلقة بكثرة الجبايات، إضافة إلى غش العملة وتزييفها، إلى جانب المعلومات الاجتماعية

المتعلقة بالفلاحين وخاصة التي تتحدث عن قيس ويمن.

ومن الممكن أن نضيف إلى قائمة المصادر أسماء بعض المراجع المستفاد منها في البحث وأهمها ((النظام النقدي المملوكي)) للباحث حمود النجيدي الذي تمتع بخبرة ومقدرة على الاستنتاج والتحليل في كتابه الذي استفدت منه فيما يتعلق بالأسعار والتضخم النقدي. كما استفدت من كتاب عبد الله الغامدي (جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري) والذي ضم عدداً كبيراً من الموضوعات التي تتعلق بالمدخل السياسي، من نشأة دولة المماليك، ودك معاقل الصليبيين، والعلاقات بين الأرمن والمماليك. ويبدأ الكتاب من استلام الظاهر بيبرس الحكم وحتى الأشرف خليل بن قلاوون.

وكان لكتابات الشيخ أحمد دهمان أهمية كبرى باعتباره عكس فيها صورة الأوضاع السياسية والاجتماعية الواردة في المصادر الأساسية، وقد اتبع نظام المؤرخين الحوليين في كتابه (ولادة دمشق في عصر المماليك) هذا وعدت أيضاً إلى مراجع أخرى اهتمت بالتنظيمات الشعبية مثل كتاب (حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي)، (الفتوة الإسلامية) لعبد اللطيف فهمي ومراجع أخرى.

كما استفدت من كتب السيد البارز العريني (المماليك والمغول)، وكتب أحمد عبد الرزاق أحمد، وفايد عاشور، واحمد مختار العبادي، وانطون ضومط، وغيرهم آخرون. واثبت أسماء المصادر والمراجع فيما بعد.

وأخيراً يجب أن أذكر أنه على الرغم من كثرة المصادر وغناها بالمواد الإخبارية نجد أن ما حوته بموضوع الكتاب قليل جداً، لذلك وجدت صعوبة كبيرة في تجيير هذه الحوادث لصالح الموضوع، وكان للدكتور المشرف فضل كبير في تدريبي على استخلاص الحوادث وتحليلها لصالح الكتاب لأن الفصل بين نظم وقوانين العصر المملوكي وما استجد من قوانين جديدة على البلاد صعب جداً. وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في إعطاء صورة واضحة عن الآثار الاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عن الحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام.

تمهيد

أوضاع بلاد الشام سياسياً وإدارياً وعسكرياً

أولاً: أهم وقائع الحملات المغولية في بلاد الشام:

كان لظهور المغول على مسرح التاريخ آثار كبيرة على الأسلحة السياسية والعسكرية في الشرق العربي الإسلامي، ونتيجة لأعمال التوسع التي قام بها المغول فقد اصطدموا بالدولة الإسلامية الخوارزمية وأجبروا بقاياها على التوجه إلى أرمينية الصغرى ونحو بلاد الشام وخاصة إلى الجزيرة الفراتية، ثم هاجموا بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية فيها، وأكملوا تقدمهم نحو بلاد الشام التي سقطت جميع مدنها تحت سيطرتهم. عدا بيت المقدس ليصطدموا أخيراً بالقوة المملوكية التي استطاعت بمساعدة بعض الأمراء في بلاد الشام من إيقاف هذا الزحف ومنعه من الوصول إلى مصر.

كانت بلاد الشام تتقاسمها عدة سلطات: الصليبيون الذين تمركزوا في فلسطين والشريط الساحلي من بيروت إلى عكا وتتوقعوا في هذه المنطقة التي تربط المتوسط بأوروبا، والأمراء الأيوبيون الذين حكموا دمشق، حلب، حماة، حمص، الكرك، ميافارقين. أما الدول التي كانت تحيط ببلاد الشام فكانت العراق التي كانت مقراً للخلافة العباسية، ودولة أرمينية التي كانت تحيط بالمناطق الشمالية، وكانت تشكل مصدر قلق كبير حيث تحالفت مع الصليبيين تارة ومع المغول تارة أخرى لتحقيق مآربها المتمثلة باستخلاص بيت المقدس من المسلمين.

كانت الأوضاع السياسية والأمنية الداخلية في حالة من الفوضى والاضطراب حيث كانت الصراعات السياسية في أوج تأزمها بين الأمراء الأيوبيين والناصر يوسف الثاني من جهة. والمعزأيبك الذي عده المؤرخون أول سلاطين المماليك من جهة ثانية إذ حاول الناصر يوسف الثاني جعل لويس التاسع (القديس لويس) ملك فرنسا المقيم آنذاك في عكا على صفه مقابل تسليم بيت المقدس له، إلا أن المعز علم بهذا العرض فبعث إلى لويس يتهدده بقتل الأسرى لديه من جند لويس وعرض عليه تعديل شروط معاهدة دمياط التي أطلق سراحه بموجبها وذلك

بالتنازل له عن أموال الفدية المتبقية لديه.

درس لويس هذا الموقف من جميع جوانبه ففضل الوقوف على الحياد في هذا الصراع[1]. في هذه الأثناء توجهت الحملة العسكرية المغولية الأولى نحو بغداد بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م وكان هذا الزحف بسبب عوامل خاصة وعامة، فالعوامل الخاصة انحصرت في اضطراب الحالة السياسية والاجتماعية في الدولة الخوارزمية المتاخمة للمغول والتي شكلت أكبر قوة إسلامية في ذلك الحين، بينما انحصرت العوامل العامة في اضطراب حالة الشرق الإسلامي بشكل عام، إذ كانت عوامل الانقسام تتهدده من الداخل بالإضافة إلى الأخطار التي أحاطت به من الخارج والتي تمثلت في رغبة هيثوم ملك أرمينية في استخلاص بيت المقدس من المسلمين وسعيه لتحقيق هذا الهدف، وتم الاتفاق على عقد تحالف بين الصليبيين الموجودين في بلاد الشام وبين هيثوم ملك أرمينية وبين المغول لتقسيم بلاد الشام واقتسام أراضيها، وقد كان لزوجة هولاكو دوقوزو خاتون دور مهم في توطيد أواصر الصداقة بين الزعماء المسيحيين وبين هولاكو[2].

سقطت مدينة بغداد بيد هولاكو ٦٥٦ هـ /١٢٥٨م وقتل المغول الخليفة العباسي المستعصم بالله[3]، وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات وأحصي عدد القتلى ومثل نحو المليوني قتيل وفي هذا بعض المبالغة، كما خربوا الآثار الدينية وهدموا البيوت، بعدها أمر هولاكو بالتوقف عن هذه الأعمال[4].

١- ابن كثير (الحافظ): البداية والنهاية، بيروت، دار الفكر، طبعة منقحة، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨م، ج ٣، ص ١٨٤.
- زكار (سهيل): فلسطين في عهد المماليك من أواسط القرن ٧ الميلادي إلى مطلع القرن ١٠ الميلادي، ص ٥٣٨.
- العبادي (أحمد): قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت، دار النهضة، ١٩٦٩م ص ١٢٥-١٢٦.
- زعرور (إبراهيم): الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة دمشق، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ ص ٧٠. - الصياد (فؤاد عبد المعطي): المغول في التاريخ، دار القلم، ١٩٦٠م، ص ١٩١.

٢- حميد (حافظ) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر الحربي، ١٩٥٠م، ص ١٤٣-١٤٤-١٤٨.

٣- المستعصم بالله: أحمد بن أبي جعفر، ولد سنة ٦٠٩ بويع له بالخلافة سنة٦٤٠، ولما نزل المغول بغداد سنة ٦٥٦ قاتل عن بغداد - ابن الكازروني(ظهير الدين علي بن محمد) المختصر في تاريخ بغداد، مطبعة الحكومة١٣٩٠ هـ/١٩٧٠م، ص ٢٦٦-٢٧٢

٤- ابن الكازروني: المصدر نفسه، ص ٢٦٦-٢٧٢.
- ابن خلدون (عبد الرحمن): التعريف بابن خلدون ورحلته، غرباً وشرقاً، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٣٧٠ هـ /١٩٥١م ص ٣١٧ المقريزي (تقي الدين أحمد): السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٥٧م، ج ١، ق٢ ص٤٠٢ – العيني (بدر الدين محمود): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، القاهرة الهيئة العامة للكتاب، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م ج ١ ص ١٦٧-١٧٣ – حمدي: المرجع نفسه، ص ١٤٣-١٤٤- عدوان (أحمد محمد): المماليك وعلاقاتهم الخارجية، ٦٤٨-٧٨٣ هـ / ١٢٥١-١٣٨١م، السعودية، دار الصحراء، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ /١٩٨٥ ن، ص ٤١

اهتز العالم الإسلامي لهذه المأساة المروعة التي حلت بالخلافة العباسية وترتب على سقوطها سقوط المدن الإسلامية الأخرى مثل الكوفة، واسط، الموصل التي دخل صاحبها بدر الدين لؤلؤ في طاعة المغول، كما استولوا على حران[1]. وتوجهوا نحو ميافارقين التي توجه صاحبها الكامل ابن الشهاب غازي العادل إلى الناصر يوسف صاحب حلب يطلب منه مؤازرته على المغول، غير أنه خذله واستخف برأيه، وصرفه بالأمان[2]، وذهب إلى أبعد من ذلك حيث بعث بولده العزيز محملاً بالهدايا والتحف إلى هولاكو.

وهنا تبرز مسألة هامة وهي سبب رفض الناصر نجدة الملك الكامل بن الشهاب غازي بن العادل وتأييده للمغول رغم أنه أكثر الأمراء الأيوبيين قوة واقتداراً؟.

إن موقف الناصر نابع من مصلحته الشخصية، فالأمراء الأيوبيون يناصبونه العداء، والمماليك انتصروا على قواته أكثر من مرة، لذلك رأى في المغول حليفاً قوياً لمساعدته على فرض سلطانه على بلاد الشام، ومن ثم انتزاع مصر من يد المماليك.

عند وصول العزيز إلى معسكر هولاكو سلمه ما معه من الهدايا التي تعبر عن الولاء له وطلب منه على لسان والده مساعدتهم في استعادة الأراضي المصرية من أيدي المماليك، وعلل سبب عدم قدوم والده بأنه لا يستطيع ترك البلاد للأعداء، فأظهر هولاكو قبول العذر ظاهراً[3]، لكنه اعتبر عدم قدوم الناصر بنفسه إهانة له فحمل ابنه رسالة ذكره فيها بما أنزله ببغداد من صنوف العذاب وقد جاء فيها ((يعلم السلطان الملك الناصر طال بقاؤه أنا لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم، فقتلناهم بسيف الله، ثم خرج إلينا رؤوساء البلد ومقدموها، فكان قصارى كلامهم سبباً لهلاك نفوس تستحق الإهلاك، وأما ما كان من صاحب البلدة فإنه خرج إلى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا فسألناه عن أشياء كذبنا فيها، فاستحق الإعدام، وكان كذبه ظاهراً، ((وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً)) سورة الكهف الآية ٤٩،

١- المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص ٤٠٩ – العيني: المصدر نفسه، ج١ ص ٢١٨ – عدوان: المرجع نفسه، ص ٤١ – الصياد: المرجع نفسه، ص ١٩٤-١٩٥ – سبانو (أحمد غسان): مملكة حماة الأيوبية، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٤م ص ٨٤.

٢- ابن العبري: (غريغوريوس): تاريخ مختصر الدول، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠م، ص ٤٨٣.

٣- ابن العيد (المكين بن جرجس): أخبار الأيوبيين، بور سعيد الظاهر، مكتبة الثقافة الدينية، ص ٤٦ – ابن العبري: المصدر نفسه، ص ٢٧٨ – ابن الوردي (زين الدين عمر): تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٣٨٩ هـ /١٩٧٠م، ج ٢، ص ٢٨٧ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢١٥- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق٢، ص ٤١٠-٤١١ – ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية، ج ٧، ص ٥٦ – العبادي: المرجع نفسه، ص ١٥١ – عاشور(فايد حماد) العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى مصر، دار المعارف، ١٩٧٥م، ص٣٦

أجب ملك البسيطة ولا تقولن: قلاعي المانعات، ورجالي المقاتلات وقد بلغنا أن شذرة من العسكر التجأت إليك هاربة وإلى جنابك لائذة.

أيـــن المفـــر ولا مفـــر لهـــارب ولنـــا البـــسيطان الثـــرى والمـــاء

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضاً أو طولها عرضاً والسلام))[1].

أزعجت هذه التهديدات الناصر يوسف الذي ما لبث أن أرسل الصاحب كمال الدين بن العديم إلى المماليك في مصر للاستنجاد بهم ضد هولاكو الذي بات هجومه مؤكداً على بلاد الشام[2]. غير أن الهجوم المغولي المغولي سبق رد المماليك المصريين، وبدأ الهجوم أولاً على ميافارقين، واشتركت معهم فرق أرمنية ومسيحية شرقية فحاصروها، واستمر الحصار مدة عامين أظهر خلالها المدافعون عن المدينة ضروباً من الجشاعة المنقطعة النظير، ونظراً لطول فترة الحصار فقد نفدت الأقوات منها، وعم القحط والوباء مما اضطر السكان إلى التسليم، وقبض المغول على حاكمها الأشرف وقطعوا رأسه سنة ٦٥٧ هـ /١٢٥٨ م[3].

ثم سار هولاكو سنة ٦٥٨ هـ /١٢٥٩م نحو بلاد الشام فعبر الفرات، وسار بجموعه إلى حلب التي كانت مفتاح بلاد الشام الشمالية، وكان يحكمها المعظم توارن شاه، فبدأ حصارها، وأرسل إلى واليها يطلب منه تسليم المدينة كما طلب منه أن يجعل فيها ثكنة للمغول، غير أن توازن شاه، فبدأ حصارها، رفض طلب هولاكو وأجابه ليس لكم عندنا الا السيف فبدأ حصارها. أما الناصر صاحب دمشق فبدلاً من أن ينضم بقواته إلى توازن شاه ويشكلا سداً منيعاً يدرآن به الخطر المغولي آثر الهروب إلى دمشق[4]. وهجم المغول على حلب

١- انظر نص الرسالة في المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص ٤١٥ – السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): تاريخ الخلفاء، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٢٨٣ هـ /١٩٦٤م، ص ٤٧٣-٤٧٤.

٢- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج٢، ص٢١٩ - المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق ٢، ص٤١٥-٤١٦ – العيني: المصدر نفسه، ج١، ص٢١٨ - السيوطي: المصدر نفسه، ص٤٧٥- الصياد: المرجع نفسه، ص١٩٧ - عودات (أ. حمد)- بيضون(جميل) شحادة (الناطور): تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الميلادي حتى القرن ١٣ الميلادي، أربد، دار الكندي، ١٩٩٠م، ص ٨٦-٨٨.

٣- أبو شامة: (شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن): تراجم رجال القرنين ٦ و٧ المعروف بالذيل على الروضتين، بيروت، دار الجيل، ط٢، ١٩٧٤م، ص٢٠١- - الهمذاني (رشيد الدين): جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون، الجمهورية المتحدة، وزارة الثقافة ١٩٦٠، ج٢، ق١ ص٣١٩-٣٢٢ – أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، ١٣٢٥ هـ، ج ٣، ص ٢٠٣ – ابن كثير: ج١٣، ص٢١٥- ابن تغري بردي: ج ٧، ص ٩١- الصياد: ١٩٥.

٤- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٠٠-٢٠١ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩١-٢٩٢ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢١٨ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٥-٧٦ – كرد علي (محمد): خطط الشام، بيروت، دار العلم، ١٩٦٩، ج ٢، ص ١٠٥- دهمان (محمد): ولاة دمشق في عهد المماليك، دمشق، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ /١٩٨١م، ص ٤٩.

بعد أن حاصروها شهراً كاملاً استسلمت بعده، ثم ملكوها بمنشور أمان، غير أنهم غدروا بأهلها، وقتلوا الكثير من سكانها وعلمائها، وصادروا الأموال وخاصة الموجودة في قلعة حلب حيث النفائس والكنوز، وصادروا الحيوانات وأحرقوا المنشآت والمعاهد الدينية كجامع حلب والأربطة والزوايا والأضرحة.

وظل المغول يستبيحون المدينة سبعة أيام امتلأت خلالها الطرقات بالقتلى، ولم ينج من السكان إلا من دخل دار شهاب الدين عمرون وغيره، وكنيسة اليهود، والخانقاه الموجود فيها زين الدين الصوفي وقد سلم في هذه الأماكن من القتل ما يزيد عن خمسين ألف نفس[1].

وهنا يجب طرح تساؤل وهو لماذا سلمت هذه الأماكن من التدمير، وسلم الذين أووا إليها من القتل؟ وهذا السؤال لم أجد الإجابة عليه سوى أن الأماكن الدينية لو كانت تحظى بمكانة مقدسة لدى هولاكو لما أقدم على تدميرها وإحراقها، وأن ترك هذه الأماكن بالذات ربما يعود إلى مكانة أصحابها بالذات، ويرجح أنهم ساعدوه في إخضاع المدينة. لقد عزا بعض الباحثين سقوط حلب خلال مدة قصيرة قياساً مع ميافارقين التي أبدت مقاومة عنيفة إلى أسباب متعددة منها موقف الناصر المتخاذل وهروبه وتركه عبء الدفاع على توران شاه، ومنها إقدام ابن العبري رئيس أساقفة حلب على تقديم فروض الطاعة لهولاكو[2]. أثرت هذه الغزوة كثيراً على الوضع السكاني للمدينة، فقد قتل بعضهم، وهاجر بعضهم الآخر، وعذب آخرون، وأدى عدم الاستقرار السياسي والأمني إلى تخلخل الوضع الديمغرافي للمدينة وإلى تأثر المهن كالصناعة والزراعة والتجارة نتيجة لفقدان الأيدي العاملة.

ونتيجة لهذه الانتصارات السريعة فقد سارع الأمراء الآخرون بتقديم فروض الطاعة للمغول، فكان ممن جاء إلى هولاكو عند أسوار حلب الأشرف موسى صاحب تل باشر الذي كافأه فيما بعد ورد إليه إمارة حمص، كما قدم فروض الطاعة الملك السعيد بن العزيز بن العادل صاحب الصبيبة. وإذا كان هؤلاء قد أبدوا الخضوع في الظاهر فإن صاحب الكرك المغيث عمر راسل المغول في الباطن، ذلك أنهم بعثوا له يلتمسون طاعته، فأجاب بجواب ظاهر الطاعة وباطنه المراوغة بانتظار ما تجري به المقادير[3].

١- أبو الفداء: ج ٣، ص ٢٠١- ابن الوردي: ج ٢، ص ٢٩٢-٢٩٤ – ابن كثير: ج ١٣، ص ٢١٨ – المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٢ – العيني: المصدر نفسه، ج١، ص ٣٢١ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٦ – دهمان: المرجع نفسه ص ٤٩.

٢- - الصياد: المرجع نفسه ص ٤٩.

٣- اليونيني (قطب الدين): ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٨٠ هـ /١٩٦٠م، ج ٢، ص ٣٥٨ - أبو الفداء: ج ٣، ص ٢٠٠-٢٠٤-٢١١ - ابن الوردي: ج ٢، ص ٢٩٤-٢٩٦ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٦-٧٧.

أثار سقوط حلب خوف بقية المدن السورية الأخرى، وقد تحقق ما كانوا يخشون منه، فبعد استيلائهم على حلب قاموا بالاعتداء على مدينة حارم حيث استولوا على قلعتها وقتلوا أهلها، كما استلولو على إعزاز. بعد ذلك سار المغول باتجاه حماة، وكان أعيان المدينة قد حملوا مفاتيحها لهولاكو عندما علموا باحتلال حلب، فأمنهم وأرسل إليهم شخصياً أعجمياً ذكر أنه من ذرية خالد بن الوليد اسمه خروشاه لتسيم المدينة، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قايماز أمير جندار فسلم القلعة إليه ودخل في طاعة المغول[1].

لقد خضعت معظم مناطق الشام لسيطرة المغول بشكل مباشر وغير مباشر حيث حكمت من قبل حكام موالين لهم، ولم يبق أمامهم غير دمشق التي اعتصم بها الناصر يوسف وقرر مع أهلها عدم تسليم المدينة إلى هولاكو، غير أن رحيل الناصر مع قواته عنها أدى إلى اضطراب الحالة الأمنية في المدينة فعمتت الفوضى، وأضحت المدينة بلا قوة عسكرية تحميها فلم تستطع بعدها المقاومة، لذلك عمد زين الدين الحافظي[2]. تسليمها لفخر الدين المزدعاني وابن صاحب ارزن، فدخلها المغول دون إراقة دماء. عندئذ كتب هولاكو أماناً لأهل دمشق قرئ بالميدان الأخضر، لكن الخوف ظل يراود الناس من هؤلاء الغزاة، فعلى الرغم من استسلام دمشق فإن القلعة بقيادة متوليها بدر الدين قراجا امتنعت عن التسليم، مما اضطر المغول إلى رميها بالمنجنيقات حيث تداعى قسم كبير منها، ثم دخلوها وقتلوا متوليها وحاميتها[3].

ويبرز السؤال الأهم لماذا استسلمت دمشق ولم تقاوم نهائياً؟.

يمكن أن يكون للدور الذي قام به زين الدين الحافظي أثر في الاستسلام، فمن المرجح أنه أجرى اتصالات مع المغول لتسليم دمشق بحجة الحفاظ عليها من التدمير والتخريب، ومنعاً من قتل سكانها على قاعدة ما جرت به العادة في المدن التي يدخلها المغول. كما يمكن القول بان الحافظي لم يلق آراء معارضة من الأعيان والرعية لتسليم المدينة، لا سيما بعد أن

١- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠١ - الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان): دول الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ج ٢، ص ١٦٢. - ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٣.
- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢١٨-٢١٩ - العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣١-٢٣٢.

٢- زين الدين الحافظي: سليمان بن عامر العقرباني، كان طبيباً في دمشق، فلما قدم المغول مع هولاكو آذى المسلمين في المدينة، ودلهم على عوراتهم، وبعدها استقدمه هولاكو واتهمه بالخيانة في الأموال التي ندبه لاستخراجها فأمر بقتله مع أخوته وأولاده وكانوا نحو الخمسين فلم ينج منهم (لا ولده مجير الدين محمد. انظر النويري(شهاب الدين أحمد): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد عبد الهادي شعيره١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج٣٠، ص١٠٩- ابن كثير: ج ١٣، ص٢٤٤.

٣- الهمذاني: ج ٢،ث ١، ص ٣٠٧-٣٠٨ — أبو الفداء: ج٣، ص ٢٠١، المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق٢، ص ٤٢٦ — ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٦- الصياد: المرجع نفسه، ص ١٩٨ — عودات: المرجع نفسه، ص ٨٧-٨٨ — دهمان: ولاة، ص ٥١.

أصبح هؤلاء لا حول لهم ولا قوة أثر خروج المدافعين عنها. فقد اتفقت الآراء على عدم قدرة دمشق على مجابهة جيوش هولاكو الجرارة. بالطبع كان هذا الاحتلال لمدينة دمشق أخف وطأة من الاحتلالات اللاحقة للمغول، فقد اقتصر على جباية الأموال القليلة منها والسيطرة على بعض الكتب ونظمها للمجمع العلمي في مراغة، إضافة إلى قتل بعض السكان[1].

واختلفت المصادر حول خط سير الناصر يوسف الأيوبي، فبعضها ذكرت أنه سار نحو وادي موسى، وذكرت مصادر أخرى أنه توجه إلى بركة زيزا[2]، غير أن اثنين من رجاله أعلما بخبره القائد المغولي كتبغا نوين فقبض عليه وحمله إلى هولاكو حيث قتله أثر خسارة المغول في عين جالوت.

واصل المغول زحفهم حتى المناطق الجنوبية من دمشق فهاجموا غزة والخليل ونابلس واقتتلوا مع الأمير مجير الدين بن أبي زكريا، وعلي بن شجاع، فقتلوا الأميرين مع مجموعة من السكان[3].

من الملاحظ أن المغول لم يحاولوا احتلال بيت المقدس قبل موقعة عين جالوت وبعدها بالرغم من أنها لم تكن أحسن حالاً آنذاك من غيرها، وتعددت الآراء حول عدم احتلالها على الرغم من تعرض سكانها للقتل أسوة بسكان المدن الشامية الأخرى. فالرأي الأول ينطلق من خوف المغول من استثارة حماس المسلمين واستفزازهم بالاعتداء على أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين المسجد الأقصى الذي لن يؤدي اعتداء المغول عليه إلى غضب المسلمين بالشام فحسب بل سيتعدى ذلك إلى كافة أنحاء العالم الإسلامي، وبالفعل فخوفهم من تضامن المسلمين عامة ضدهم هو الذي منعهم، إضافة إلى أنهم حرصوا على عدم المواجهة مع الصليبيين والحفاظ على وضعهم الراهن، حيث التزم هؤلاء الحياد إبان الصراع المغولي الإسلامي، فجيش المغول ضم بين أفراده عدداً من المسيحيين الشرقيين مع الأرمن وغيرهم، بينما كان الصليبيون يرغبون في أن تبقى الهيمنة في كنائس القدس[4] للكنيسة الغربية في

١- ابن العميد: المصدر نفسه، ص ٥١- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٦.

٢- بركة زيزا، من قرى البلقاء كبيرة يطؤها الحاج ويقام بها سوق وفيها بركة عظيمة. انظر الحموي (ياقوت): معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ج ٣، ص ١٦٣.

٣- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٣ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٧- ١٩٨٨م، ج ٢، ص ٢٣٤ – عطا الله (محمد علي): نيابة غزة في العهد المملوكي، بيروت، دار الآفاق، الطبعة١ ١٩٨٦م، ص٢٠٧. الصياد: المرجع نفسه ص١٩٨

٤- كنيسة القيامة: أشهر الكنائس المسيحية بنتها هيلانه أم الإمبراطور قسطنطين عاهل الإمبراطورية الرومانية الشرقية ومؤسس مدينة القسطنطينية، وهو أول إمبراطور تنصر وأمر بنشر الديانة المسيحية وجعلها دين الحكومة الرسمي، وكان الفراغ من بنائها سنة ٣٣٥م، وأصبحت من ذلك التاريخ حجاً للمسيحيين، هدمها الفرس أثناء غاراتهم على سوريا وفلسطين سنة ٦١٤ هـ، ولما جاء الفتح الإسلامي سنة ٦٣٧م دخلها عمر وزار كنيسة القيامة فلما أدركته

روما خاصة أن المصادر زودتنا بمعلومات مفادها أن هولاكو كان عليه بعد تسلم بيت المقدس أن يسلمها إلى حليفه ملك أرمينية هيثوم الأول[1].

والرأي الثاني ربط عدم قدوم المغول لبيت المقدس بالخطوط الدفاعية التي أقامها سلاطين المماليك على الحدود الشرقية وشحنوها بالرجال والعتاد، إضافة إلى الخطوط الدفاعية الممتدة من الشوبك والكرك جنوباً إلى أعالي العاصي شمالاً، هذه التحصينات منعت المغول من التفكير باحتلال المناطق الجنوبية[2].

لم يكن ذلك السبب الوحيد الذي منع المغول من مهاجمة بيت المقدس، لكن التحالف الذي تم بين المماليك وبين مغول القبيلة الذهبية الذين يعتنقون الإسلام ويكنون لهولاكو مشاعر الحقد والكراهية، ووصول مساعدات رمزية منهم إلى المماليك اشتركت في الحرب ضد هولاكو من الأسباب الأخرى لعدم تقدمهم، وإذا صح هذا فمعناه حصول المماليك على بعض المعلومات العسكرية عن فنون القتال لدى المغول، وبالتالي وقوع مغول هولاكو بين فكي كماشة مغول القبيلة الذهبية، والمماليك[3]، إضافة إلى أن المغول لم يكن هدفهم القدس بالذات وإنما هدفهم الوصول إلى غزة والقاهرة، وإذا ما سقطت القاهرة فحتماً تسقط القدس، وما يؤكد ذلك أن غاية الحملة الصليبية الثالثة عدم مهاجمة مواقع في فلسطين بل في مصر، وإذا سقطت هذه المواقع في مصر فإن القدس ستسقط.

كما يمكن القول بأن هولاكو علم مسبقاً بطاقات الجيش المملوكي وقدراته القتالية العالية، واحتلال القدس خطورة على الحكم المملوكي الحديث التأسيس لذلك فإن السلاطين سيزجون بكافة الامكانات العسكرية في القتال، وبالتالي يمكن هزيمة المغول حيث لا طاقة لهم بقتال هذا الجيش.

١- عين جالوت:

بعد استسلام دمشق للمغول، خاف المماليك في مصر لا سيما أن دولتهم ما تزال في نشأتها الأولى، كما خافوا أن يعبر هؤلاء باتجاه مصر سيما أنه لم تبق مدينة باستثناء بيت المقدس

الصلاة خرج منها وصلى أمامها ولم يصل في القيامة خشية أن يدعيها المسلمون ويحولوها إلى مسجد. انظر ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧ ص ١٦٢ حاشية المحقق رقم ١.

١- الغامدي (عبد الله سعيد): جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين من النصف الثاني من القرن السابع الهجري، السعودية جامعة أم القرى مركز البحوث العلمية وأحياء التراث الإسلامي، سنة ١٤١٠ هـ ص ٩٨-٩٩.

٢- غوانمة (يوسف درويش): تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، عمان، دار الحياة، ١٩٨٢ ص ١٨.

٣- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٤٠.

والمناطق الجنوبية إلا ووقعت تحت سيطرتهم، لذلك بادروا إلى الوقوف في وجه الأعداء خاصة بعد أن بعث هولاكو سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م رسالة قاسية إلى قطز تهدده فيها وتوعده، وطلب منه الطاعة[١]، ورد عليه قطز بقتل رسله وتصميمه على لقاء جنوده بعد أن قرر ذلك مع أمرائه، وواجه في هذا السبيل بعض المصاعب الداخلية لكنه استطاع تذليلها، عندئذ أمر بجمع الجيوش، وحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله، وقد استطاع قطز جمع عدد هائل من عساكر مصر والشام كما ضم إليه البدو والتركمان[٢].

تقدمت طلائع جيش قطز بقيادة بيبرس البندقداري نحو غزة، فاصطدمت هذه العساكر بطلائع المغول بقيادة بايدر فكان لهذا الصدام أهمية كبرى من حيث اختبار قدرات العدو وخططه العسكرية، زد على ذلك أن هذا الصدام بث الروح المعنوية العالية لدى العساكر العربية الإسلامية إلى جانب أنه موه وغطى تحركات الجيش الإسلامي بقيادة قطز.

سلك الجيش الإسلامي الطريق الساحلي، وعرج نحو عكا لاستطلاع موقف الفرنجة فيها، فقد كان هؤلاء في وضع محرج، فالخلافات الداخلية على أشدها بين طوائفهم، لذلك لم يكن أمامهم سوى إطلاع المماليك على موقفهم المحايد من الصراع المغولي العربي الإسلامي.

ومما ساعد العرب المسلمين في هذه الأثناء مغادرة هولاكو لبلاد الشام، فقد وردته أنباء تفيد بوفاة أخيه منكوقان، وكان يطمح في أن يجري اختياره خليفة له، وتنازع أخويه الآخرين إلى جانب تهديد حدود دولته من قبل ابن عمه بركة خان الذي يحكم القبجاق.

وبناء على إلحاح المسيحيين وفي مقدمتهم هيثوم ملك أرمينية وافق هولاكو على أن يترك قائده كتبغانوين (كيتوبوقا) وتحت أمرته مجموعة من الفرسان يكملون مهمته[٣]، وكان كتبغانوين يدرك المصلحة الحقيقية من قيام حلف صليبي مغولي لذلك أحسن النوايا تجاههم وقربهم، بينما عاداه فرنجة عكا وذلك بسبب تهديد مصالحهم التجارية إذا ما استطاع المغول السيطرة على بلاد الشام.

لقد أثار إخفاق بايدر عند اصطدامه بجيش بيبرس حفيظة كتبغانوين، وتقدم للانتقام واثقاً من نفسه بجيش يزيد على ثلاثين ألف فارس، فلما وصل إلى نهر الأردن حدثت اتصالات

١- ينظر نص الرسالة في المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٧-٤٢٨ – ابن إياس (محمد بن أحمد) بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢، ج١، ق ٢، ص ٣٠٤ – القرماني (أحمد) أخبار الدول وآثار الأول، ليس له طبعة، ص ١٩٨ – الصياد: المرجع نفسه ص ٢٠٢ – عودات: المرجع نفسه، ص ٨٨.

٢- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٩ – دهمان: ولادة، ص ٥٣ – زكار: المرجع نفسه، ص ٥٤١ – الغامدي: ص ١٢٠.

٣- الصياد: المرجع نفسه، ص ٢٠١.

سرية بين بعض المسلمين في جيشه وبين المماليك أخبروهم فيها بأنهم مستعدون للتخلي عن المغول أثناء القتال.

قرر المسلمون أن يكون اللقاء في عين جالوت، والتقى الفريقان في هذا الموقع واعتمد المسلمون في المعركة خططاً حربية مغايرة لما كانوا يتبعونه مع الفرنج، تجلت في الالتحام القريب لاحتواء الهجوم المغولي، بينما كان فرسان المغول خفافاً فأضر الالتحام بهم، ودامت هذه الاشتباكات عدة أيام انتهت بتطويق الهجوم واحتوائه وقتل القائد كتبغانوين وعدد كبير من قادة العدو، وبمقتل كتبغانوين انهارت الجموع المغولية واضطرت للانسحاب من بلاد الشام[1]. بعد تقهقر الأعداء في عين جالوت هربوا نحو شمال بلاد الشام فوحدوا صفوفهم استعداداً لمواجهة الظاهر بيبرس الذي تبعهم فهاجمهم في وكرهم، وغنم منهم أموالاً كثيرة[2].

ويبرز سؤال مهم وهو لماذا بدل المماليك أساليب القتال، هل كان لهم عيون داخل قيادة الجيش المغولي؟ بالطبع لا بد أن تكون معلومات تفصيلية وصلتهم تفيد بأساليب القتال المغولية وبناء عليه اعتمد المماليك أساليب جديدة تحتوي هجومهم وقتالهم.

كانت معركة عين جالوت نقطة تحول كبرى في التاريخ الإسلامي، فقد أوقفت الغزو المغولي وحولت تياره من مد إلى جزر، وحررت بلاد الشام، وحفظت لمصر مركز الزعامة، وكانت تجربة حربية خطيرة بين أسلوبين وفنين من فنون الحرب في تلك العصور، وأثبتت هذه المعركة دحض المقولة بان المغول لا يهزمون فللمرة الأولى في التاريخ يهزم جيش المغول هزيمة منكرة، كما أثبتت هذه المعركة أن القوة الإسلامية تحولت من الدفاع إلى الهجوم، كما أرست قواعد السلطة في مصر والشام للمماليك، وهيأت الفرصة لبناء هيكل الدولة المملوكية، وكان من تولى هذه المهمة الظاهر بيبرس الذي اغتال قطز بعد المعركة، إضافة إلى أنها كانت نهاية الدولة الأيوبية[3].

١- ابن العميد: نفس المصدر ص٥٣ - المنصور(بيبرس)التحفة الملوكية في الدولة التركية، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٤٣-٤٤ – اليونيني: المصدر نفسه، ج١، ص٣٦٠ - ابن الوردي: المصدر نفسه، ج٢، ص٩٧- المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق١ ص٤٣٠-٤٣١ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٨-٧٩ – السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٥ - ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق، ص ٣٠٦ – حمدي: المرجع نفسه، ص ١٥٠ – الصياد: المرجع نفسه، ص ٢٠٤-٢٠٥ – زكار: المرجع نفسه، ص ٥٤١-٥٤٢ – بدر (مصطفى): مغول إيران بين المسيحية والإسلام، مصر، مطبعة الاعتماد، ص ٧٧.

٢- ابن عبد الظاهر (محي الدين): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦م ص ٦٥- المنصوري: التحفة، ص ٤٤ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٨٢.

٣- ابن العميد: المصدر نفسه، ص ٥٣- الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٦٣ – الصياد: المرجع نفسه، ص ٢٠٨ – حمادة (محمد ماهر): دراسة وثائقية للتاريخ الإسلامي ومصادره، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م، ص ٣٣٨ – ٣٣٩ –

نتيجة لانتصار المسلمين في المعركة اقدم المظفر قطز على معاقبة الأمراء والأكابر المتآمرين مع المغول كالسعيد حسن بن العزيز الذي قاتل مع الأعداء، فضرب عنقه، ومحمد بن يوسف الكنجي وابن الماسكيني وابن النفيل[1].

وبنتيجة المعركة استعاد المسلمون في دمشق مكانتهم وكرامتهم بعد أن استطال عليهم المسيحيون المتعاونون مع المغول أثر دخول جيوش المغول إلى المدينة، وعادت الأمور إلى الهدوء والاستقرار الأمني، وأصبح قطز سيد الشام، وملك البلاد من الفرات إلى مصر ما عدا امارة الكرك التي كانت في يد المغيث عمر، كما وزع الإقطاعات، واستناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي، ونصب المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار نائباً على حلب، واقر المنصور على حماة وبارين، ورتب شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميراً على الساحل وغزة[2].

أثرت غزوة هولاكو بشكل سلبي على مجتمع بلاد الشام سواء على الصعد الاجتماعية أو الاقتصادية، فعلى الصعيد الاجتماعي أدت إلى الهجرات السكانية إلى خارج البلاد كمصر مثلاً، وأصبحت بلاد الشام مكاناً طبيعياً للنازحين من العراق، كما أدت إلى نزوح وتحركات سكانية من منطقة لأخرى خوفاً من العدو، مما أدى إلى زعزعة التوزع الديمغرافي لسكان المنطقة، وجعلت المدن تعج بالنازحين من الأرياف الذين لا يجيدون أي عمل سوى الفلاحة مما أدى إلى البطالة، وهذا بدوره أدى إلى زيادة الاضطراب الأمني، فالعاطلون عن العمل يقومون بالسرقة والتشرد ومشاكل اجتماعية أخرى. إضافة إلى أنها أدت إلى تناقص عدد السكان أثر مقتل الكثير من سكان حلب ودمشق وفلسطين ومقتل الأعيان والقادة كأسد الدين بن الزاهر بن صلاح الدين، عبد الله بن بركات، العماد عبد الحميد بن عبد الهادي المقدسي، المعظم توران شاه، الفقيه الكبير أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين اليونيني، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلسني، الملك الكامل ناصر الدين

الغامدي: المرجع نفسه، ص ١٣٣ - دهمان: ولاة، ص ٥٥ - زعرور: المرجع نفسه، ص ٧٤.

١- أبو شامة: تراجم، ص ٢٠٧- اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦١ – أبو الفداء: المختصر، ج ٣، ص ٢٠٥ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٢١-٢٢٥ – العيني: المصدر نفسه: ج ١ ص ٢٥٠ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٨٠-٨١ ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، له طبعات متعددة، ١٩٨٤، ١٩٨٦، ١٩٨٨/١٤١٠ هـ ١٩٩٠م ص ٩٠-٩١ عاشور: العلاقات، ص ٧٥.

٢- أبو شامة: تراجم، ص٢١٠- ابن عبد الظاهر: الروض، ص٦٦ – أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص٢٠٥-٢٠٦ – الذهبي: دول، ج ٢، ص١٦٣ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٩-٣٠٠ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٢ – العيني: ج ١، ص ٢٤٨.

محمد بن المظفر، شهاب الدين غازي بن العادل[1].

ومن ناحية أخرى فقد تعرض الكثير من المنشآت العمرانية للخراب كأسوار قلعة حلب وسور المدينة، وسور قلعة حماة الذي خربه الشرف موسى بأمر من هولاكو، إضافة إلى إحراق زرد خانتها، وقد بيعت الكتب الموجودة بدار السلطنة بالقلعة بأثمان رخيصة، كما تخرب قسم من قلعة حمص، وهدم قسم من سور قلعة دمشق، وتخربت آلاتها، وأحرق زرد خانتها[2]. ورافق خراب أسوار المدن وأسوار القلاع خراب المنشآت في داخل المدن[3].

بعد الانتصار العظيم في عين جالوت توفي المظفر مقتولاً وخلفه على عرش السلطنة الظاهر بيبرس، وأراد المغول استغلال هذه الفرصة، فقد توقعوا حدوث انقسام بين جيشه فتجمعوا مرة أخرى وبادروا بالهجوم على مدن الشام فهاجموا حلب سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م وأخرجوا أهلها إلى قرنبيا وقتلوهم، ثم توجهوا نحو حمص سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م وجرت معركة حامية الوطيس بالقرب من الرستن استطاع المسلمون النصر فيها على المغول، إذ اضطرهم الانهزام للانضمام إلى جموع مغولية كانت نازلة بسلمية، وحاولوا عبثاً مهاجمة حماة مرة ثانية، لكن لم يتسن لهم ذلك فرحلوا عنها إلى أفامية حيث حاصرهم جيش إسلامي واضطرهم للرحيل إلى حلب، فسارع بيبرس بإرسال جيش كبير وكل إليه مهمة طرد المغول من الشام، فلما سمع هؤلاء بقدوم الجيش هربوا واتجهوا نحو شرق بلاد الشام[4].

وهنا يجب طرح تساؤل هام وهو ما دام العرب المسلمون قد انتصروا في عين جالوت على جموع المغول فلماذا لم يهاجموهم في مكان إقامتهم في العراق، أو في أي منطقة قريبة من حدود بلاد الشام الشمالية؟

من المفترض أن يقوم بيبرس بعد عين جالوت بهجوم واسع شامل على الأراضي التي تخضع للمغول والتي يقيمون بها كالعراق، لكن عدم استقرار الأوضاع السياسية الداخلية منعته من تحقيق ذلك، فدمشق خرجت عن طاعته عندما أعلن سنجر الحلبي استقلاله بالسلطنة فيها، كما أن الكرك والشوبك لم تكونا قد عادتا بعد إلى الحماية المملوكية، إلى جانب الخوف

١- ابن الوردي: ج ٢، ص ٢٩٢ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٢٧-٢٢٨ – ابن تغري بردي: النجوم ج ٧، ص ٩١-٩٢.

٢- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٤-٢٩٥ – ابن الطباخ: إعلام النبلاء، ج ٢، ص ٢٣٣.

٣- ينظر الفصل الأخير واردات الدولة ونفقاتها.

٤- ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص ١٩٦ – اليونيني: المصدر نفسه، ج١، ص ٤٣٤-٤٣٥ – أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٩- الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٦٤-١٦٥ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٢ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٢٣ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٢ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ١٠٦-١٠٧.

من العدو الصليبي المتمركز بداخل المدن القريبة من مصر.

رأى الظاهر بيبرس الذي كان قائداً حربياً وسياسياً بارعاً أن الظروف تقتضي تثبيت حكمه عن طريق إحياء الخلافة العباسية التي سقطت أمام جموع المغول وهمجيتهم سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م والجدير بالذكر أن بيبرس لم يكن الأول من فكر في إحياء الخلافة العباسية، لكنه هو الذي نجح في تحقيق هذا المشروع وإبرازه إلى حيز الوجود بنقله إلى القاهرة. فبعد سقوط بغداد وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله هرب الأمير أحمد العباسي أحد أفراد العائلة المالكة إلى بلاد الشام، والتجأ إلى عرب آل فضل وظل في حمايتهم حتى اجتاح المغول الشام فرحل إلى مصر طلباً للأمان، إضافة إلى تحقيق الخطة التي وضعها نصب عينيه وهي استرجاع العراق من يد المغول بدعم مملوكي.

عندئذ ارتأى بيبرس أن حكمه يحتاج لصفة شرعية، وذلك لا يتحقق إلا بمبايعة الأمير بالخلافة، فأقدم على مبايعته ولقبه بالمستنصر بالله وأكرمه مع بقية أفراد البيت العباسي، لكنه بعد فترة وجيزة بدأ الظاهر بيبرس يحث الخليفة على مقاتلة المغول، وتعددت آراء المؤرخين في الأسباب التي دعت لذلك، والنتيجة كانت سير الخليفة لملاقاتهم بدعم من بيبرس مادياً وعسكرياً، حتى أن بعض عساكر الشام انضمت إليه إلى جانب قوات من البدو والتركمان، وأسفرت المعركة بين الطرفين عن هزيمته وقتله، وبذلك قضي على الآمال باسترجاع العراق من أيدي المغول[1].

ظل بيبرس يجاهد الأعداء حتى توفي سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م بعد أن وضع الأسس الصحيحة لمن أتى بعده من السلاطين، غير أن وفاته المبكرة بعد اعتلائه عرش السلطنة ضيع كل آماله وجهوده في تأمين الاستقرار السياسي لبلاد الشام ومصر على حد سواء. وخلفه على العرش ابنه السعيد بركة، ثم سلامش حيث لم تجر في أيامهما وقائع مع المغول حتى أتى السلطان قلاوون الذي جرت في أيامه معركة كبيرة في حمص أسفرت عن نتائج هامة[2].

١- أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢١٣ – الخالدي (إبراهيم بن عبد الرحمن بن القيسراني): النور اللائح والدر الصادح في اصطفاء مولانا السلطان الملك الصالح، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م، ص ٥٦-٥٩ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٧-٤٧٧ – العيني: المصدر نفسه، ج١ ص ٢٣٣ – السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٨١ – ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٣١٢-٣١٨ – العبادي: المرجع نفسه، ص ١٨٠، ١٨٤-١٨٦، ١٨٧ – عدوان المرجع نفسه، ص ٥٢ – بروكلمان (كارول): تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، دار العلم، الطبعة الثالثة ج ٢، ص ٢٤٢-٢٤٥.

٢- الخالدي: المصدر نفسه، ص ٥٦-٥٩ – العليمي (مجير الدين): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بيروت، دار الخيل، ١٩٧٣م، ج ٢، ص ٨٨- بروكلمان: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٤٥.

٢- موقعة حمص:

حدث انشقاق في بلاد الشام تمثل بعصيان سنقر الشقر على السلطات المملوكية ورغبته بالاستقلال بالمناطق التي يحكمها في البلاد، لكن السلطات المملوكية منعته وحاولت قتله مراراً ولاحقته واصطدمت قواته مع جيش السلطان قلاوون فهزمت قواته، وانسحب الأمير سنقر على أثرها من غزة إلى الرحبة وأرسل المغول بمساعدة أمير آل فضل مهنا بن عيسى، ثم غادرها إلى صهيون وتحصن بها.

استغل المغول الانشقاق بين الأمير سنقر والسلطان المملوكي، وبغية تحقيق مآربهم والانتقام لهزيمة جيوشهم أمام المماليك في معركة الأبلستين سنة ٦٧٥ هـ /١٢٧٦م قرروا مهاجمة بلاد الشام وتقدمت جيوشهم سنة ٦٧٩ هـ /١٢٨٠م وتوزعت لثلاث فرق، فرقة جاءت من جهة الشرق، وثانية من بلاد سلاجقة الروم، وثالثة ضمت معظم عساكر صحبة منكوتمر بن هولاكو[1].

وطبيعي أن يعم الرعب كافة المناطق، فنزح معظم السكان خوفاً من أعمال القتل والتشريد، فلم يبق في المدن والريف إلا من عجز عن الحركة. في هذه الأثناء بدأ الأمراء في تجميع قواهم ضد العدو المتقدم وراسلوا الأمير سنقر الشقر وطلبوا منه الامتثال لطاعة السلطان وخوض المعركة معهم ضد المغول فقبل ذلك بعد اتفاق سنة ٦٨٠ هـ /١٢٨١م يقوم بموجبه الأمير سنقر بتسليم شيرز لنواب السلطان قلاوون، وان يقيم ما بيده من البلاد وهي صهيون، بلاطنس، برزية، اللاذقية، بينما يعوضه، السلطان عنها الشفروبكاس وافامية وكفرطاب وأنطاكية، ووافق السلطان على منحه لقب الأمرة، وأن خاطب المقر العالي المولوي السيدي العادلي الشمسي[2].

في هذه الأثناء دخل المغول حلب وأحرقوا الجوامع والمساجد والمدارس وقتلوا الكثير ممن بقوا في المدينة. وفي أثناء ذلك علموا باتفاق جميع الأطراف على قتالهم فغادروا حلب بعد أخذهم الكثير من الغنائم حتى قيل إن الأرمن أخذوا المنبر معهم، وتوجه المغول جنوباً نحو بقية المدن السورية.

١- المنصوري: التحفة، ص٩٩ - ابن الوردي المصدر نفسه، ج٢، ص٣٢٦ – المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٨١ – العيني: المصدر نفسه، ص ٢٧١ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٢٩٧ – الغامدي: المرجع نفسه، ص ٢٣٤- بدر: مغول إيران، ص ٧٩.

٢- ابن العبري: المصدر نفسه، ص ٥٠٤- ابن عبد الظاهر (محي الدين): تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، مصر، وزارة الثقافة، الشركة العربية المتحدة للطباعة، الطبعة الأولى، ١٩٦١م، ص ٨٧ – أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٦ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٥٩٤ – ٢٩٥ – المقريزي: السلوك ج١، ق ٣ ص ٦٨٧ – ٦٨٨ – ابن تغري: النجوم، ص ٧، ص ٣٠١-٣٠٢.

في نفس الوقت استغل الفرنجة الموجودون في المرقب الفوضى الحاصلة في المنطقة وقاموا بأعمال فساد مما اضطر نائب حصن الأكراد سيف الدين بلبان الطباخي إلى قتالهم لكنه لم يستطع هزيمتهم بل كانت النتيجة عكسية[1].

كما أن السلطان المملوكي توصل إلى عقد هدنة مع الفرنج لمدة عشر سنوات[2].

تابع المغول تقدمهم فوصلوا حماة ففعلوا فيها كما فعلوا بحلب من الدماء والقتل وأحرق الغزاة بستان الملك المنصور قرب حماة وجوسقه. وتابع الجيش المغولي زحفه بقضه وقضيضه عن طريق وادي العاصي. فوصل حمص استعداداً لملاقاة الجيش العربي الإسلامي بقيادة السلطان قلاوون. وقد قدر عدد جيش المسلمين بنصف عدد جيش المغول. اختلفت المصادر في حجمه فبعضها ذكرت أنه بلغ مائة ألف مقاتل، وأخرى ثمانين ألف شكل المغول منهم خمسين ألفاً والباقي من أجناس مختلفة: كرج، أرمن، عجم. وكان الملتقى بين الطرفين فيما بين مشهد خالد بن الوليد إلى الرستن والعاصي، فحلت الهزيمة بالمغول، فولوا مدبرين منهزمين بعد أن قتل منهم عدد كبير، وكان هذا أمراً طبيعياً بالنسبة للمسلمين الذين اتحدوا جميعهم ضد الغزاة، ففي الاتحاد قوة. ذلك أن جيش المسلمين ضم جميع الطوائف البدوية، التركمانية، الكردية، إضافة إلى جيش مصر والشام.

تأثرت مدينة حمص بالقتال الدائر على أرضها، فقد أدى ذلك إلى الإضرار بالمحاصيل الزراعية، ناهيك عن تعرض جميع من كان خارج أسوارها إلى القتل من قبل المغول، فقد قتل المغول جميع من حظوا به من العوام والسوقة والغلمان والمقاتلين بظاهرها[3].

تفرق المغول المنهزمون من أرض المعركة باتجاهين، الأول جهة سلمية حيث هلك الكثير منهم في الطريق إلى سليمة، والثاني اتجاه الفرات حيث أرسلت السلطات من أضرم النار

١- ابن عبد الظاهر: تشريف، ص ٨٠ مقدمة المحقق – ابو الفداء: المصدر نفسه ج ٤، ص ١٤ – النويري: نهاية الأرب، ج ٣، ص ٣١ – الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٨١ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٦ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٨٢-٦٨٤ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٢٩٨-٢٩٩ – الغامدي: المرجع نفسه، ص ٢٣٥.

٢- ابن عبد الظاهر: تشريف، ص ٨٢.

٣- ابن العبري: المصدر نفسه، ص ٥٠٤-٥٠٥ – المنصوري – التحفة، ص ٩٩-١٠١ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٣-٣٧ – أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤-١٥ – الذهبي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٢-١٨٣ – ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٢٢-٣٢٦ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٩٥-١٩٦ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٩٣-٦٩٥ – العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧١-٢٧٦ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٣٠٣-٣٠٥ السيوطي: المصدر نفسه، ص ٤٨١- فهمي (عبد السلام): تاريخ الدولة المغولية في إيران، مصر، مطبعة دار المعارف، ١٩٨١م، ص ١٦٣-١٦٤.

بالازاور[1]، فاحترقت طائفة كبيرة منهم، وتابع من تبقى منهم إلى بغداد ليلتحق أبا قاخان (ابغا) الذي علم بانهزام أتباعه وهو يحاصر الرحبة، فقفل عائداً إلى بغداد، وكان ممن نجا أخوه منكوتمر الذي استاء منه أباقاخان (ابغا) لعجزه عن هزيمة العرب المسلمين، واتجه قسم صغير من المغول المنهزمين إلى البيرة فقاتلهم أهلها ومنعوهم من احتلالها[2].

وهكذا تمكن العرب المسلمون اثر هذه المعركة من هزيمة اباقاخان ثلاث مرات، في البيرة، ابلستين، حمص، وبذلك استقرت الحدود الفاصلة بين المغول والمماليك نهائياً بين بلاد الشام والعراق[3].

انتهى الأمر بين المماليك والمغول لتوقيع هدنة لمدة سبعة عشر عاماً[4]، ولم يمض على عقد الهدنة فترة قصيرة حتى تولى العرش المغولي السلطان أحمد تكودار الذي اعتنق الإسلام وجنح إلى مهادنة العرب المسلمين في بلاد الشام، وبادل سيف الدين قلاوون رسائل المودة أظهر فيها رغبته في أن يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين[5].

وقد اهتم الباحثون بالعلاقات المملوكية المغولية ومنهم عبد الله الغامدي الذي أكد أن المكاتبات التي تبودلت بين الطرفين كانت من الممكن أن توقف العداء بين الدولتين ليتحقق للإسلام وللمسلمين فترة من التقدم والانتشار والوقوف في وجه العداء فيما لو استمر الأيلخان أحمد تكوادر فترة طويلة، غير أن مقتله سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ من قبل أرغون قضت على تلك الآمال حيث أقدم السلطان أرغون على اضطهاد المسلمين وصرفهم عن المناصب التي كانوا يشغلونها[6]. وبرأيي أن النتائج المحتملة (المتوقعة) لبقاء أحمد تكودار على قيد الحياة، وعلاقته مع المشرق العربي فيها احتمالان:

١- أدت السياسة الداخلية والخارجية لهذا الحاكم والمتمثلة بتعاطفه مع المسلمين وإحلال

١- الزور: الأجمة ذات الماء والحلفاء: انظر النويري: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٦ حاشية المحقق رقم.

٢- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٥ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٦ – ابن الفرات (ناصر الدين محمد): تاريخ ابن الفرات، بيروت، جامعة بيروت الأميركية، المطبعة الأميركانية، ١٩٤٢م، ج ٧ ص ٢٢١-٢٢٢ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ١٩٨-٦٩٩ – فهمي: المرجع نفسه، ص ١٦٤.

٣- فهمي: المرجع نفسه، ص ١٦٥.

٤- ينظر نص الهدنة بين قلاوون واحمد تكودار عند ابن العبري، ص ٥٠٦- ابن عبد الظاهر: تشريف ص ٦-١٦ – أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦ – المقريزي: السلوك، ج١، ق ٣ ، ص ٧٠٧-٧٠٨.

٥- ابن عبد الظاهر/ تشريف، ص ٤٤- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٩٠- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٤٨ – ٢٤٩ – بدر: المرجع نفسه، ص ٧٩-٨١.

٦- ابن العبري: المصدر نفسه، ص ٥١٨ – ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٨، ص ٨٣- الغامدي: المرجع نفسه، ص ٢٥١.

القرآن الكريم محل أحكام الياسا والعرف القبلي ومهادنة المماليك كل هذا أدى إلى تأليب الأمراء المغول ونقمتهم عليه وبالتالي قتله.

٢- إن أحمد تكودار كان سينهج على نهج أسلافه عندما غزوا بلاد الشام بعد أن يتبع سياسة المهادنة مع المماليك في مصر لتثبيت حكمه وبعدها يذهب لغزو بلاد الشام.

كان حقد أرغون على المسلمين والهزائم المتكررة التي مني بها المغول في بلاد الشام سبباً للتحالف مع القوى المعادية للمسلمين في ذلك الوقت والمتمثلة بالصليبيين الذين كانوا يدينون بالمسيحية، فتعاطف معهم وأرسل سفارات إلى المقر البابوي في سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م و٦٨٦ هـ /١٢٨٧م و٦٨٨ هـ / ١٢٨٩م و٦٨٩ هـ /١٢٩٠م يقترح فيها القيام بحملة مشتركة مع المقر البابوي ضد المماليك، ويقوم الغرب فيها بغزو مصر بينما تغزو جيوشه بلاد الشام، وإذا ما أمده ملك فرنسا فيليب بقوات إضافية فإنه سوف يمنحهم القدس، لكن هذه السفارات لم تثمر عن تعاون فعال، ولم يجد أرغون استجابة الغرب سواء من البابا أو من غيره من الملوك ولم يتعد الاهتمام بخطاباته أكثر من قراءتها[1].

وهكذا لم يقع في عهد أرغون أي قتال مع المماليك، ولم يتحقق أي تحالف مغولي مع الغرب وربما يعود ذلك إلى انصراف غرب أوروبا إلى المخاصمات والعداوات بالإضافة لانشغال المغول بالاضطرابات الداخلية الحادة.

وهذا يعني أن العرب المسلمين بلغوا درجة عالية من القوة جعلت المغول يوجهون أنظارهم إلى الغرب الأوروبي لكسبه لجانبهم من أجل توجيه ضربة موجعة للمسلمين.

بيد أن ارغون لم يستمر لفترة طويلة في الحكم إذ تسلم بعده كيخاتو، بايدو، ثم غازان، في حين كانت بلاد الشام تنعم بشيء من الاستقرار والهدوء، وبتسلم غازان عرش المغول بدأ يفكر في غزو المنطقة خاصة بعد أن وصلته أنباء تفيد أن حالة من الضعف وعدم الاستقرار تسود المنطقة بسبب النزاع على العرش في مصر بين كل من كتبغا ولاجين والناصر محمد بن قلاوون

كما أن هناك عوامل أخرى ساعدته على مهاجمة البلاد منها تحريض الناصر محمد أمراء المسلمين على طرد المغول من إيران والعراق، ومهاجمة الجيش الإسلامي لأرمينية التي كانت موالية للمغول والاعتداء على أراضيها يعني الاعتداء على الأراضي المغولية. إضافة إلى استقبال السلطان المملوكي كتبغا عصاة المغول الذين فروا من وجه غازان بعد انتصاره على بايدو واعتناقه الإسلام، فقد هاجر عدد كبير منهم عرفوا بالأويراتية. كل هذه العوامل كانت

١- فهمي: المرجع نفسه، ص ١٧٧-١٨١.

مشجعة على ازدياد هوة الخلاف بين المغول والمماليك[1].

ويمكن أن يضاف عامل آخر للعوامل الواردة فيما مضى وهو هدف المغول بالوصول إلى البحر الأبيض المتوسط، ذلك أن المغول ومنذ قيام دولتهم شجعوا على التجارة وأمنوا الطرق التجارية، فازدهرت هذه الطرق، وتحولت معظم التجارات إلى المناطق التي حكموها، فاستطاعوا السيطرة على معظم الممرات والمضائق والمدن التجارية باستثناء بلاد الشام التي تطل على البحر المتوسط والتي تشكل محطة تجارية هامة ترتبط مع الغرب الأوروبي، من هذا المنطلق يمكن القول بأن أهمية بلاد الشام التجارية دفعت المغول باستمرار للهجوم على بلاد الشام.

لقد صمم غازان على الخروج إلى المماليك وما أن هرب سيف الدين قبجق نائب السلطان في دمشق مع جماعة من الأمراء والتجأوا إلى محمود غازان حتى تشجع وبدأ يفكر في امتلاك البلاد وتحقيق أطماع المغول ومواصلة السير إلى مصر.

٣- موقعة الخازندار:

أدرك غازان أوضاع البلاد السيئة بسبب النزاعات على السلطة، وأن الخلافات بينهم وصلت إلى طريق مسدود بحيث لا تمكنهم من لم شملهم والوقوف في وجه العدو، لذلك قرر التوجه بحملة كبيرة إلى بلاد الشام، ولكي يصبغ حلمته بصبغة الشرعية استفتى رجال الدين فأجمعوا على الغزو.

ولما وصل إلى مسامع الناصر محمد خبر الحملة المغولية جهز جيشاً لصدهم، وقاد الناصر الجيش واتجه به من القاهرة إلى عسقلان سنة ٦٩٨ هـ ١٢٩٨م، وما أن وصلت إليه الأخبار بكثرة عدد جنود العدو وإمكاناته العالية وعدده الوفيرة حتى وقع الرعب في قلوب الجند خاصة عندما رأوا أنواعاً من الجراد محلقة في الجو فتشاءموا، واعتبروها نذيراً بالهزيمة.

في هذا الوقت كانت جحافل الغزاة قد اجتاحت حلب وحماة، فسبب هذا الاحتياج الكثير من التخريب والتدمير، فنزح أهل القرى والمدن طلباً للأمان، وارتفعت الأسعار بشكل مذهل، فادى ذلك بالنهاية إلى توقف الحياة العامة في المدن المذكورة.

بعدها سار جيش العدو نحو حمص بانتظار المسلمين، فلما وصلوا التقى الفريقان في مجمع المروج - يعرف بوادي الخازندار - وكان جيش المسلمين يقارب عشرين ألف فارس يسانده البدو والتركمان، بينما كان جيش المغول خمسة أضعافهم. لم تسفر المعركة في البداية عن نتيجة بسبب إخفاق الخطة التي اعتمدها العرب المسلمون والتي هدفت إلى جر العدو إلى

١- النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ٢٩٦ – ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٤٤.

المعركة أولاً ثم استنزاف قدراته، لكن غازان استغل تفكك المسلمين وهاجمهم، فشرع المسلمون في الهزيمة، وأخذ الأمراء السلطان وساروا على درب بعلبك والبقاع بعد أن تركوا جميع الأثقال ملاقاة على الأرض، وعبر بعض العسكر دمشق، واستشهد في المصاف عدد كبير من الأمراء منهم نائب طرابلس، نائب قلعة المرقب وآخرون[1].

غنم العدو أثر المعركة الكثير من العدد والأثقال والأموال التي كانت ملقاة على الأرض، والتي كلفت السلطات والرعية الكثير من الأموال والضرائب لامتلاكها ويمكن أن يكون لخسارة المسلمين في المعركة وافتقادهم السلاح والأموال أثر كبير في تقدم الغزاة نحو بقية مدن الشام واحتلالها.

لم يبق أمام الغزاة من عائق، بل أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم فساروا باتجاه حمص ودخلوها لوجود الخزائن السلطانية وأثقال العسكر فيها، وقد استلولوا عليها من غير قتال من قبل متوليها محمد بن الصارم، ثم سار العدو باتجاه دمشق. وهنا يطرح لماذا اتجهت الحملات العسكرية المغولية دائماً باتجاه دمشق سيما أنها كلها توقفت فيها ولم تتجاوزها؟

من الممكن أن يكون هدف الحملات العسكرية المغولية تجارياً، فدمشق شكلت عقدة مواصلات تجارية هامة، فقد كانت محطة للتجارة البرية مع آسيا الصغرى والعراق ومصر، كما أنها كانت محطة للتجارة البحرية حيث أوصلت البضائع التجارية إلى البحر الأبيض المتوسط، فالتجارة الآتية من الشرق إلى البحر المتوسط تمر عبرها، والتجارة الآتية من آسيا الصغرى والمناطق المحيطة بها تمر عبرها إلى مصر يعني أنها عقدة تجارية استراتيجية هامة، ولما كان هدف المغول الوصول إلى البحر المتوسط للسيطرة عليه تجارياً فحتماً كان إخضاع دمشق هاماً أيضاً.

عند سماع أهل دمشق نبأ توجه غازان إليها وقع الخوف والرعب في نفوس أبنائها حيث ترك قسم منهم حوانيتهم وأموالهم واعتصموا بالقرى والجبال، كما سار آخرون باتجاه مصر، مما

١- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٢-٤٣ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٨٤-٣٧٨ الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢٠٢ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٣ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٦-٧ – ابن خلدون (عبد الرحمن): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، ج ٥، ق ٤، ص ٨٨٩ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٨٦-٨٨٨ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦-١٧ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٢، ص ١٢١-١٨١ – ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٤٠٣- ابن الطباخ: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٢ – دهمان، ولاة، ص ٨٨-٨٩ – عكا الله: نيابة غزة ص ٢١١ – منقريوس (رزق الله): تاريخ دول الإسلام، مصرن مطبعة الهلال، ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧م، ج ٢، ص ٢٨٧ – فهمي: المرجع نفسه، ص ٢٠١-٢٠٢.

أفسح مجالاً للصوص بالفساد بالمدينة، واتفق ما تبقى من أهل مدينة دمشق على إرسال وفد يضم كبار فقائها وعلمائها لطلب الأمان من غازان، واشترك في هذا الوفد الكثير من العلماء والفقهاء أمثال بدر الدين بن جماعة، تقي الدين بن تيمية، نجم الدين بن صصري، القاضي عز الدين بن الزكي، الشيخ وجيه الدين بن المنجا، الشيخ عز الدين بن القلانسي وابن عمه شرف الدين، الشيخ محمد بن قوام النابلسي، جلال الدين أخو القاضي القزويني[1].

اجتمع الوفد بغازان بالنبك، وقدموا له طعاماً على سبيل الهدية فاعتذر عن قبوله، ولما طلبوا الأمان أخبرهم بأنه أرسله مع الشريف القمي فعادوا إلى مدينتهم واجتمعوا بالمسجد الأموي، وتلا عليهم أمير مغولي اسمه إسماعيل صورة الأمان في سنة ٦٩٩ هـ[2].

اطمأنت نفوس الناس بعد قراءة الأمان، ودخل المغول دمشق بهدوء، لكن قلعتها بقيت خارج سيطرتهم ففوض غازان الأمير قبجق نائب دمشق الهارب وبرفقته عدد من الأمراء التفاوض مع أرجواش المنصوري لتسليمها، وحدث حوار عنيف بين الوفد وبين أرجواش، وقالوا له: ((دم المسلمين في عنقك إذا لم تسلمها)) فأجابهم ((دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى غازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها))[3]. ورفض تسليم القلعة لقواد غازان.

قرر المغول بعد هذا الرفض الاستيلاء على القلعة عن طريق حصارها وقذفها بالمنجنيق، فرأوا خير مكان لنصب المنجنيق سطح الجامع الأموي، فشرعوا بالعمل وعندما لم يبق إلا تركيبه استطاع رجال أرجواش تحطيم أدواته وأخفق العدو في نصبه، عندئذ بدأ أرجواش بهدم البيوت بجانب القلعة خوفاً من اختباء العدو فيها فهدم من باب النصر لباب الفرج[4].

ولا يعلم مصير من تهدمت بيوتهم، وهل ساعدتهم السلطات أم لم تساعدهم؟. ولا ندري لماذا لم تحصن السلطات أسوار مدينة دمشق واكتفت بتحصين قلعتها؟.

١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٨٦-٣٨٨ – المقريزي: المصدر نفسه، ج ١ ق ٣، ص ٨٨٨-٨٨٩ – المقفى الكبير، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ / ١٩٩١م ج ٧، ص ١٧٠-١٧١ – دهمان: ولاة، ص ٩٠-٩٢.

٢- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٨٩-٨٩٠ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ٦٣٤ وينظر صورة الأمان عند النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٢٨٩-٢٩٢ – المقريزي: السلوك، ج١، ق ٣، ص ١٠١١-١٠١٢ ومختصراً عند العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٤٠ – دهمان: ولاة، ص ٩٣-٩٥.

٣- ابن ايبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر ج ٩ وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، القاهرة، ١٣٧٩ هـ /١٩٦٠م ص ٢٤- ابن تغري بردي: النجوم، ص ١٢٥.

٤- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٥-٣٩٧ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٩ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣ ص ٨٩٣ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤١-٤٤ – دهمان: ولاة ص ١٠٢-١٠٥.

في هذه الأثناء قلد قبجق بلاد الشام كلها وهي دمشق، حماة، حمص، حلب، إضافة إلى ولاية الخطباء والقضاة وغيرهم، وبدأ العدو بقتل السكان وتدمير المنشآت في جبل الصالحية بعد أن طلبوا الأموال، فلم ترض هذه الأعمال الفقهاء والعلماء وخصوصاً ابن تيمية الذي توجه إلى غازان المقيم بمرج راهط ليشكو له ما جرى من المغول بعد أمانه، فلم يتمكن من لقائه بعد مجالس اللهو والسكر التي كان يحضرها، لكنه عاد إليه ثانية واجتمع إليه مع وفد العلماء ومما قاله له: ((أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا. وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت عامداً، فوفيا، وأنت عاهد فغدرت، وقلت فما وفيت))[1].

ثم قدم غازان طعاماً للعملاء فأكلوا إلا ابن تيمية رفض الطعام فطلب غازان منه الدعاء فقال: ((اللهم إن كنت تعلم أنه قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وجهاداً في سبيلك فأيده وانصره. وإن كان للملك والدينار والتكاثر، فافعل به واصنع))[2].

لم يجد ما طلبه الفقهاء نفعاً فقد اقتحم جنود العدو أقسام المدينة ومعاهدها الدينية والعلمية، وعاثوا فيها الفساد، وهتكوا أعراض الناس، وفرضوا الأموال على فئات الناس كالعلماء والجنود والفلاحين والتجار والعمال وغيرهم، وعذبوهم بكافة الأساليب المتبعة لتحصيلها ما عدا الرشوة التي حصلوا عليها.

ولم تطل مدة مكوث غازان في دمشق فقد غادرها مضطراً بعد علمه أن مغول التركستان الجغتائيين هجموا على حدود بلاده الشرقية من ناحية خراسان وعاثوا الفساد في مملكته منتهزين وجوده في بلاد الشام وخلوا البلاد من المدافعين عنها، واصطحب غازان معه في طريق العودة ثلاثة من أعيان دمشق وهم بدر الدين محمد بن فضل الله، وعلاء الدين بن شرف الدين محمد بن القلانسي، شرف الدين سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير.

ولم ندر ما سر اصطحاب غازان لهؤلاء الأعيان.

وخلف غازان نائبه قطلوشاه في إدارة البلاد، كما كتب عهداً للأمير قبجق بنيابة الشام، والأمير بكتمر السلاح دار بنيابة حلب وحماة وحمص، والأمير الألبكي بنيابة صفد والساحل وطرابلس. أراد الأمير قبجق أن يظهر بمظهر المدافع عن البلاد، وتحقق له ذلك عندما استطاع

١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٤-٣٩٥ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨ – المقريزي: المقفى، ج ١، ص ٤٥٧ – السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩١-٨٩٢ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٩٧-٣٩٨.

٢- المقريزي: المقفى، ج ١، ص ٤٥٧- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢-٣٨ – دهمان: ولادة، ص ٩٧-١٠١.

إقناع قطلوشاه بترك البلاد بعد أن كانت قواته تغير على كل مدن الشام وتنهب وتقتل، ولكن هذا الانسحاب كان مشروطاً بدفع كمية من الأموال، قبل قطلوشاه ورحل، عندها عاد الأمان لدمشق ففتحت الأسواق وأبواب المدينة[1].

بعد رحيل جميع قواد المغول بقي الأمير قبجق وحيداً في السلطة، فخاف من المصير المجهول الذي ينتظره، فاتفق مع المماليك، ورحب السلطان بذلك وعفا عنه وانعم عليه بالشوبك وعين مكانه بدمشق جمال الدين آقوش الأفرم.

ومنذ ذلك الحين كان الشغل الشاغل لجميع أفراد المجتمع من سياسيين وقضاة وعلماء وعامة تحصين دفاعات المدينة وتقويتها إضافة إلى بث الروح الوطنية والقتالية في النفوس. ولم تألُ السلطات جاهدة في عقوبة من ساند الغزاة سواء كانوا من الأكابر أو الأعيان أو عامة الناس. لا سيما أن هؤلاء استغلوا الاضطراب الأمني في المدينة ونهبوا بيوت الأكابر والأثرياء، كما اتبعوا أساليب متنوعة لتعذيب السكان عند جباية الأموال، وقد تنوعت عقوبتهم، ونراها مفصلة عند النويري حيث قال:

(فكحل الحاج مندوبه، وسمر الشريف القمي، وابن العوني البرددار[2]، وابن خطلبشا المرى وحملهم على الجمال، ثم أطلق ابن العوني بعد ثلاثة أيام، وشنق كاتب مسطبة الولاية بدمشق، وإبراهيم مؤذن بيت لهيا، ورجلا من اليهود، وقطع لسان ابن طاعن، وقطع يد ورجل أحد من أمرهم قبجق، فمات بعد ثلاثة أيام، وكحل الشجاع همام، فمات بعد ليلة)[3]

بالنتيجة كانت الخلافات القائمة في البلاد والمتمثلة في الصراع على السلطة أحد الأسباب التي شجعت غازان على غزو بلاد الشام، إضافة إلى أن الأمراء المنشقين أطلعوه على مواطن الضعف والوهن الذي حل بالدولة. وكان انشقاق الأمير قبجق وخيانته لبلاده من أسباب اضطراب الأمور.

وعلى العموم فإن ما أصاب البلاد من جراء غزوة غازان كان عظيماً، إذ قدر عدد القتلى بالآلاف، إضافة إلى الخسائر المادية الناتجة عن جمع الأموال، والخسائر التي لحقت بالأراضي

١- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٧-٣٩٨ – المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٤-٨٩٦ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٥-٤٦ – دهمان: المرجع نفسه، ص ١٠٧-١٠٨ – فهمي المرجع نفسه، ص ٢٠٤-٢٠٥.

٢- البرددار: وهو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان في الجملة، متحدثاً إلى أعوانه المتصرفين فيه ح دهمان (محمد أحمد) معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٣٢

٣- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤٠٧- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٢ – المقريزي: السلوك ج ١، ق ٣، ص ٨٩٩-٩٠٠-٩٠٢ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧٩-٨٠.

الزراعية نتيجة إتلاف المحاصيل أثناء حصول المعارك العسكرية، إلى جانب فقدان اليد المنتجة في الزراعة وهم الفلاحين سواء بهجرتهم من مناطقهم أو إرهاقهم بالضرائب والمغارم، كل ذلك ترك الرعية في فقر مدقع.

كان لهذه الغزوات أثر كبير في الإبداع الفكر العربي، فالوفرة الديمغرافية تؤدي إلى ظهور الإبداع الفني والعلمي والثقافي، وعلى العكس كلما قل عدد السكان كلما قل عدد المبدعين والمخططين والسياسيين البارعين، وهذا يعني بالنهاية انحطاط المجتمع. كما سببت غزوة غازان دماراً وخراباً لأكثر المعالم الحضارية والعمرانية، وانتهاك حرمات الأماكن المقدسة كالجامع الأموي، وتشجيع الفساد به حيث تناول المغول بداخله الخمر والحشيش، فلماذا سمح لهم غازان بذلك ما دام مسلماً؟

شكك بعض المؤرخين في إسلام غازان، واعتبروا إسلامه مظهراً دعائياً فقط، بعد أن أثبتوا أنه خرق قوانين الشريعة الإسلامية عندما ضم نساء أبيه إلى نسائه ما عدا أمه[1].

كان وقع غزوة غازان هائلاً على جميع فئات المجتمع في دمشق التي رأت في اتفاقها وتعاونها مخرجاً للأزمة، فحصل تنسيق بين الهيئات الدينية والسياسية، وبدأت هذه الهيئات بتحريض الرعية على عدم النزوح عند قدوم العدو، وإنفاق الأموال من أجل الذود عن المدينة، كما حرضتهم على القتال. وكان على رأس السلطات الدينية ابن تيمية الذي كان يعقد مجالسه في الجامع الأموي، وظلت هذه الهيئات تواظب عملها حتى استطاعت تسكين جأش الناس وروعهم[2].

في خضم هذه الظروف وجد غازان نفسه في موقف محرج بعد خروجه من بلاد الشام، فقد كان عليه أن يعيد البلاد إلى قبضته كي يعيد للدولة المغولية هيبتها واحترامها، فجهز جيشاً سار به عبر الفرات، واتجه نحو إنطاكية سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠م ووصلت الأنباء للسلطات بأن الجيش المغولي يتقدم فذهب ابن تيمية إلى نائب دمشق وحثه على الصبر وقتال الأعداء، كما توجه إلى السلطان في مصر يستنهضه ويقوي عزيمته حتى وافق على إرسال قسم من الجيش لبلاد الشام شرط أن يلحق به السلطان، فوصل الجيش المصري للبلاد بينما كان جيش العدو قد وصل إلى حماة وشيرز، وقام بأعمال السلب والنهب والفساد، فأخذ للتركمان وأهل البلاد مواشي كثيرة، كما أسر عدداً كبيراً من سكان المنطقة حتى بيع الواحد منهم بعشرة

١- ابن حجر العسقلاني: الدرر، ج ٣، ص ٢١٣ – فهمي: المرجع نفسه، ص ١٩٣.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٤- دهمان: ولاة، ص ١١٥.

دراهم، غير أن سوء الأوضاع الجوية من قسوة البرد والأمطار والثلوج حالت دون تقدم غازان نحو دمشق فعاد أدراجه نحو بلاده.

وكان غازان يأمل في مساعدة جيرانه وملوك أوروبا في انتزاع بلاد الشام من المماليك، فراسل كلاً من ملكي إنكلترا وفرنسا بشأن ذلك لكنه لم يلق التأييد لعاملين أساسيين وهما، إسلام مغول فارس، وانشغال الدول الأوربية بمشاكلها الخاصة وانصرافها إلى المخاصمات والعدوات، وفتور الروح الصليبية لديها[1]. عندئذٍ عول على مهادنة المماليك فأرسل إلى الناصر محمد رسالة سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠م حملها وفد مؤلف من عشرين رجلاً أنزلوا بقلعة دمشق وعلى رأس هذا الوفد الأمير ناصر الدين علي خواجا، والقاضي كمال الدين موسى بن يونس قاضي الموصل، وقد سلم هؤلاء الكتاب للناصر محمد، وقد عاب فيها غازان على الناصر محمد مهاجمة بلاد الروم دون سبب، وأنذره بالقتال إذا لم يرتد عن أفعاله، وطلب منه أن يعد له الهدايا والتحف، وإذا كانت رسالة غازان تحمل المهادنة ضمت بين طياتها التهديد والوعيد، وكان أسلوب الرسالة حاسماً، وكأنها صادرة من حاكم إلى من هو دونه قوة وقدرة، كما أنها شملت بعض الآيات القرآنية والمواعظ الإسلامية[2].

٤- وقعة شقحب (مرج الصفر):

عندما أخفقت المحاولات لتحسين العلاقات بين الطرفين استعد الفريقان للقتال، وتحرك المغول بجيوشهم الجرارة حتى نزلوا على ضفاف الفرات، ولما وصل غازان إلى الرحبة لاطفه نائبها علم الدين سنجر الغتمي ووعده بأنه سيبقى معه، وحسن له القصد نحو المدن الكبار. وعمد غازان إلى محاولة خداع مع جميع نواب الشام، فاخبر نائب حلب بأنه قدم البلاد من أجل المراعي لأن بلادهم قد أمحلت، وبعث لنائب دمشق جمال الدين آقوش الفرم كتاباً يرغبه في طاعته[3]. لكن خداعه سرعان ما انكشف حيث تقدم قائده قطلوشاه نحو الفرات، وعبر مع طائفة من جنده وأغاروا على القريتين فنهبوا أموال التركمان ومواشيهم، ونساءهم، وأطفالهم، ولما علمت العساكر الإسلامية بهذه الغارة سارعت إلى قتالهم فردتهم على أعقابهم وكسرتهم واسترجعت منهم الأسرى والأموال، لكن المعركة أسفرت عن استشهاد عدد من الجنود والأمراء المسلمين منهم الأمير ، ناصر الدين الباشقردي الناصري ونحو ستة وخمسين

١- فهمي: المرجع نفسه، ص ٢١٤.

٢- ينظر نص الرسالة عند القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٨، ص ٦٩-٧١.

- فهمي: المرجع نفسه، ص ٢٠٧.

٣- ينظر النص مختصراً في السلوك، ج ١ ق ٣، ص ١٠٢٤-١٠٢٧ - وكاملاً عند العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢١٠-٢١٧.

من الجند والأمراء، وجرح نحو ثمانين منهم.

كان هذا الهجوم خدعة من قبل العدو لتفريق جيش المسلمين وتشتيته حتى تسنح له الفرصة لإخضاع بلاد الشام. إلا أن الأمراء سرعان ما تنبهوا لهذا الخطر ففوتوا على العدو خطته، وسارعوا بالالتحاق ببقية الجيوش التي بدأت تتجمع نواحي مدينة دمشق. بعد أن اطمأن غازان على وضع جيشه عبر الفرات وتوجه إلى كربلاء، ثم عانة، وبعدها إلى أردبيل وأقام ينتظر النتيجة التي جاءت مخيبة للآمال.

بعدها توجه العدو المغولي بقيادة قطلوشاه نحو حمص وبعلبك وعاثوا في أراضيها فساداً، ثم تقدموا نحو دمشق حيث كانت تخيم على المدينة أجواء من الفوضى العارمة التي استغلها اللصوص والحرافيش للقيام بأعمال تخريبية، ورافق هذه الأجواء ارتباك اقتصادي تمثل في ارتفاع الأسعار، واحتكار التجار للمؤن الغذائية مما أدى إلى انخفاض القيمة الشرائية النقدية وظهور الكساد في الأسواق وشبح المجاعات، إلى جانب ترك الناس لأعمالهم. إلا أن السلطة ونتيجة لما ذكر سابقاً فإنها أجمعت على القتال، فاجتمعت العساكر المصرية والشامية المتواجدة في بلاد الشام بقيادة بيبرس الجاشنكير وساروا إلى مرج الزنبقية ظاهر دمشق منتظرين وصول السلطان مع العساكر المصرية، ولما اقترب منهم المغول ساروا إلى مرج الصفر وألقوا الرحال هناك[1].

توجه السلطان المملوكي من مصر على رأس جيش كبير وضم إلى جيشه عربان نابلس والشام وطرابلس فبلغ مجموع ما اجتمع معه مائتي ألف مقاتل، وتقدم حتى وصل دمشق. والتقى ابن تيمية الذي حثه على الجهاد فأثرت كلماته عنده فما كان من السلطان إلا أن سار حتى وصل قرب الكسوة ويصف المقريزي تقدم القوات: ((ومشى السلطان والخليفة بجانبه، ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد، ويشوقون إلى الجنة، وصار السلطان يقف ويقول الخليفة: يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم قاتلوا عن حريمكم وعن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم))[2].

وفي الثاني من شهر رمضان سنة ٧٠٢ هـ /١٣٠٢م التقى المغول والمماليك عند مرج الصفر في

١- المنصور: التحفة، ص ١٦٣-١٦٧ – أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤٨ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٣-٢٤ – الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك): الوافي بالوفيات، ليس له تاريخ طبعه، ج ٤، ص ٣٦٠- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٣٠-٩٣٣ – المقفى، ج ٧، ص ١٨٠- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٢٠-٢٢٣ – دهمان: المرجع نفسه، ص ١٣٨- - فهمي: المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٥-٢٧ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٣٣- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٢٣-٢٢٤ – ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٤١٣ – دهمان: ولاة، ص ١٣٦.

معركة حسمت الصراع بينهم لفترة طويلة، إذ تبع هذه المعركة سنوات طويلة لم يهاجم فيها المغول بلاد الشام حتى غزوة تيمورلنك، وانتهت المعركة بهزيمة المغول هزيمة نكراء. فقد هلك معظم جيشهم، ومن لم يمت بالسيف مات من شدة الظمأ، وفر قائد المغول قطلوشاه نحو الفرات وتبعه من نجى من الهلاك، فغرق بعضهم في نهر الفرات، ومات آخرون من الجوع، ومن ظل سار بجانب الفرات فتخطفه البدو. وقتل عدد قليل من جيش المسلمين فكرمتهم السلطات وبنت لهم القبب مكان دفنهم[1].

أظهرت هذه المعركة التفوق العسكري والتنظيم في صفوف المقاتلين المماليك، ومن المحتمل أن المماليك استفادوا من المعلومات العسكرية المقدمة لهم من قبل الأمراء الفارين إلى بلاد المغول فالأمير قبجق ورفاقه الذين أطلعوه على جميع طرق وفنون القتال المغولية، وعلموا مكامن الضعف والقوة وزودوها للسلطات[2].

أصيب غازان بخيبة أمل كبيرة نتيجة لما حل بجنده من النكبات، حيث خسر قسماً من جيشه ولم يعد منه سوى الثلث، وزاد غضبه إثر وصول رسالة من الناصر محمد يوبخه فيها، ويحقر من شأنه، ويطلب منه الرحيل عن العراق، ويلومه على غدره، ويذكره بأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله.

بعدها عقد غازان مجلس الأمراء لمحاكمة قواد الجيش المنهزمين، فحكم المجلس على قائدين منهم بالإعدام، بينما ضرب القائدان جوبان وقطلوشاه ضرباً مبرحاً لأن غازان حمله مسؤولية الهزيمة.

عاد غازان إلى بلاده في وضع محزن بالوقت الذي عاد فيه الناصر إلى القاهرة في موكب حافل، حيث استقبلته الرعية، وكان يحيط به حراسه ويتبعهم ألف وستمائة من أسرى المغول مكبلين بالسلاسل والأغلال، بينما رفع ألف رأس من رؤوس القتلى المغول على أسنة الرماح تعلوها طبول الحرب المغولية الممزقة.

١- ابن تيمية (أحمد): الرسالة القبرصية، علق عليها علاء الدين دمج، بيروت، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م، ص ٤٢- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٨-٤٩ – الذهبي: / دول، ج ٢، ص ٢٠٩- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٢ – الصفدي: الوافي، ج ٤، ص ٣٦١-٣٦٢ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٥-٢٦ – ابن حبيب (الحسن بن عمر): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، مصر، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦م ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٩ – ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٨٩٧-٨٨٩ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٣٧- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣٥-٢٤٤ – ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٤١٣-٤١٤ – عدوار: المماليك، ص ٣٠- بدر: مغول إيران، ص ١١١-١١٧.

٢- ينظر لاحقاً حركات التمرد والعصيان وارتباطها بالمغول.

وإذا كانت القاهرة قد احتفلت كثيراً بهذا النصر وكانت بعيدة عن مكان المعركة فكيف هي حالة دمشق التي جرت المعركة على مقربة من أرضها والتي شاركت فيها عساكرها فلا بد من ابتهاجها أكثر[1].

كانت الكارثة التي حلت على المغول في مرج الصفر سبباً لاعتلال صحة غازان ووفاته، فخلفه على العرش أخوه محمد خدابنده أولجاتيو (٧٠٥-٧١٦ هـ -١٣٠٥-١٣١٦ م) الذي بدأ حكمه بالتودد إلى الناصر محمد، على أن أولجاتيو لم يكن مخلصاً في تودده للناصر، فعلاقاته مع المماليك تأثرت كثيراً باعتناقه للمذهب الشيعي، كما أنه فكر مجدداً بغزو بلاد الشام عبد أن أطلعه الأمير قراسنقر وجمال الدين آقوش الفرم على حالة البلاد، لذلك حسن علاقاته مع الدول الأوربية وراسل كلاً من الباب كلمنت الخامس، وادوارد الثاني ملك إنكلترا، وفيليب الجميل ملك فرنسا لعقد تحالف مغولي مسيحي وذلك بهدف إخضاعه بلاد الشام ومصر وإنزال العقاب بالمماليك.

ونتيجة لحقد خدابنده على المماليك المدافعين عن المذهب السني والعوامل المذكورة فيما مضى سير حملة ٧١٢ هـ /١٣١٢م وصلت إلى الرحبة واصطدمت بقلعتها التي تعد أولى القلاع المملوكية على الحدود الشامية، ولكن خدابنده أخفق في إخضاع هذه القلعة بعد حصار دام عشرين يوماً، وقتال عظيم من جانب سكانها ونائبها الأمير بدر الدين موسى الازدكشي، فعاد إلى بلاده يجر أذيال الفشل بعد فناء جيشه. وتمخض عن قدوم الغزاة للبلاد نزوح معظم سكان المدن وغلاء الأسعار[2].

بعد هزيمة خدابنده ساد المنطقة استقرار أمني وسياسي، وكان ذلك حافزاً للأمراء والنواب بإعادة إعمار ما تهدم، والنهوض الاقتصادي بالبلاد، وتتالى على حكم البلاد أمراء أقوياء أحبوا الإصلاح فشرعوا في إعادة بناء الهيكل الاجتماعي والاقتصادي، وربما تكون الحروب الطاحنة التي قامت بين المغول أنفسهم قد ساعدتهم على إكمال الأعمار باعتبارها كفت أنظارهم عن المنطقة، وباعتبارها خففت عنها العبء العسكري الذي كانت تتحمله

١- ابن ايبك: الدواداري: المصدر نفسه، ص ٨٢-٨٨ – الصفدي: الوافي، ج ٤، ص ٣٦١- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٣٧-٩٣٨ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨٢-٢٨٣-٣١٦-٣١٧ – كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٣٨-١٣٩- عدوان: المرجع نفسه، ص ١٣٢ – حمادة: المرجع نفسه، ص ٣٥٠- فهمي: المرجع نفسه، ص ٢١١.

٢- ابن ايبك الدواداري المصدر نفسه: ص ١٧٩-٢٤٥-٢٥٢-٢٥٣ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٦٦-٦٧ – العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٧-٢٥١ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٦٤ – عدوان: المرجع نفسه، ١٢٧-١٢٨- عدوان: المرجع نفسه، ص ٢١٨-٢١٩.

الرعية نتيجة للغزوات المستمرة. ومما يؤكد استقرار المنطقة تفكير الناصر محمد بضم ممتلكات الدولة الايلخانية إلى مملكته وذلك بعد أنباء الاضطرابات التي وصلت مسامعه عقب موت السلطان المغولي أبي سعيد، فقد قدمت إليه بعثات من شيخ حسن بزرك ومحمد خان سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧م تطلب مساعدته فأرسل الناصر بعض قواته إلى حدود بلاد المغول، ومكثت هذه القوات تنتظر ما تتمخض عنه المعارك بين الأطراف المتنازعة، لكنها لم تتدخل نتيجة للمشاكل الكثيرة[1].

٥- تدهور أوضاع السلطنة ونهاية حكم الترك وبداية حكم الجراكسة:

توفي الناصر محمد بن قلاوون واستلم أولاده الثمانية من بعده الحكم من سنة (٧٤١-٧٥٥هـ / ١٣٤٠-١٣٥٤م) وقد تميزت هذه المرحلة بازدياد نفوذ الأمراء وتسلطهم على السلاطين الضعفاء الذين إما أنهم تولوا السلطة وهم صغار أو نتيجة إهمالهم لواجباتهم، ونأخذ مثلاً على ذلك الأمير قوصون كبير الأمراء الذي عزل أحد أولاد الناصر بعد مضي ثلاثة اشهر على حكمه، فتولى الأمر بعده أخوه كجك وعمره حينئذ سبع سنوات. هذا الوضع دفع الأمراء إلى الثراء الفاحش فسارعوا إلى شراء المماليك وظلموا الرعية مما أدى إلى مشاكل اقتصادية وعسكرية، وتدهور الوضعان المالي والاقتصادي، وازدادت المساوئ الإدارية، وازداد الصراع السياسي بين المماليك الجركس والترك على السلطة. وفي آخر هذه الفترة تعاظم أمر الأتابك يلبغا العمري الذي قتله السلطان حسن، ولم تطل مدة السلطان حسن حتى قتل لينتهي بذلك عصر أولاد الناصر محمد ليبدأ عصر أحفاده[2] الذي لم يكن بأفضل من عصر الأولاد، فقد ازداد نفوذ مماليك الجركس، حيث قام الأمير يلبغا اليحياوي باتهام السلطان صلاح الدين بن حاجي باختلال عقله فعزله وولي آخر مكانه.

وصل نفوذ المماليك الجركس إلى أوجه عند بروز برقوق كشخصية سياسية، بارعة، حيث ساعده في تنفيذ مهامه صهره الأمير طشتمر الدواداري الذي عين نائباً لدمشق سنة ٧٧٥ هـ /١٣٧٣م، وبعد أن ثبت برقوق حكمه تخلص من نفوذ الأمراء الكبار فانفرد بالحكم[3].

بتسلم برقوق الحكم بدأ عصر المماليك البرجية فسمى نفسه الظاهر وبايعه الخليفة

١- فهمي: المرجع نفسه، ص ٢٤٠-٢٤١.

٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٩٢-٢٠٩، ٢١٨-٢٢١-٢٢٤-٢٢٥ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ١، ص ٤-١٢-١٣-١٤-١٥-٢١-٧٨-٢٥٤ - العليمي: الأنس الجليل، ج ٢، ص ٩٢-٩٤ - عودات: المرجع نفسه، ص ١١٢-١١٥.

٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٠٢- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٢٨١-٢٨٢- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١١، ص ٢٤ - ابن إياس: بدائع الزهور: ج ١، ق ٢، ص ٢٤١-٢٤٣- دهمان: ولاة، ص ٢٣٥ - عودات: المرجع نفسه، ص ١١٥-١١٦.

والأمراء. بقي الوضع مستقراً حتى ثار على برقوق نائب حلب يلبغا الناصري، ونائب ملطية منطاش، وانضم إليهما بعض نواب بلاد الشام عام ٧٩١ هـ / ١٣٨٨م، وقد تمكن المتمردون من إخضاع دمشق لسيطرتهم، ثم زحفوا باتجاه القاهرة، فهرب برقوق من القلعة واختفى مدة قصيرة انتهت بالقبض عليه ونفيه إلى الكرك.

عندئذ تحركت الأطماع السياسية لبقية النواب في المنطقة فأثاروا الفتن وقادوا حركة التمردات، ومن بين المدن التي شهدت هذه التمردات، طرابلس، حماة، دمشق، وغيرها من المدن الأخرى. استطاع برقوق بعد فترة وجيزة التخلص من سجنه في الكرك وتوجه نحو دمشق، فانقسم نواب مدن الشام ما بين مؤيد له ومعارض وجرى قتال بين الجيش الذي انضم للسلطات وبين المتمردين، انعكست آثاره الحادة على نيابة دمشق، لأن الصراع جرى على أرض المدينة مما سبب خراباً اقتصادياً واجتماعياً تمثل في قتل بعض السكان، ومصادرة أموال الأثرياء، وحصول ارتفاع في أسعار المواد الغذائية نتيجة للاحتكارات.

استطاع برقوق في النهاية قتل يلبغا الناصري، والقضاء على منطاش[1]. لكنه لم يعمر طويلاً فقد توفي سنة ٨٠٠ هـ /١٣٩٨م، فتولى بعده ابنه الناصر فرج وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر عاماً. وفي بداية حكمه اجتاح تيمورلنك بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ /١٤٠٠م، ولم يستطع الناصر مواجهته بسبب الظروف السياسية السيئة. كما أن تيمورلنك لم يمكن الناصر فرج من الاتصال بالدول المجاورة وعلى الأخص الدولة العثمانية. وعدم استفادة الناصر فرج من قوات احمد بن أويس وقرا يوسف التركماني بسبب العداء معهما، بالإضافة لخطأ ارتكبه السلطان فرج وهو عدم توقيع تحالف مع السلطان العثماني بايزيد للوقوف في وجه الخطر المغولي، والذي طلبه السلطان العثماني بنفسه، لكن الناصر رفض بسبب استيلاء الجيوش العثمانية على ملطية سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨م. حيث أن بايزيد كانت تنقصه العساكر ذات الخبرة والدراية الحربية التي كان يمكن إيجادها في المماليك.

وقد بين أهمية ذلك التحالف تم المؤرخ ابن تغري بردي فقال:

«لهذا قلت إن المصلحة كانت تقتضي الصلح مع أبي يزيد بن عثمان المذكور، فإنه كان يصير للعساكر المصرية من يدبرها، ويصير لابن عثمان المذكور عساكر مصر مع عساكره عوناً، فكان

١- المقريزي: السلوك ج، ٣ ق ٣، ص ٥٨٠-٥٩٠-٦٠٧-٦٨٨-٦٦٩-٧٠٤-٧٨٢-٧٨٥- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١١، ص ١١، ص ٢٢١ – ٢٢٢؟ ابن صصري (محمد بن محمد): الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، كاليفورنيا، بركلي، ١٩٦٣م، ص ١٨-٢٠-٢٥-١١٠- الصيرفي (علي بن داوود): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، مصر، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م، ج ١، ص ٣٠٩-٣٢٨.– ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٣٩٧-٤٠٥-٤٤٤.

تيمورلنك لا يقوي على مدافعتهم، فإن كلاً من العسكرين كان يقوى دفعه لولا ما ذكرناه، فما شاء الله كان))[1].

وكيفما كان الأمر فقد تقدم تيمورلنك للبلاد وعجز الناصر فرج عن رده، فما كان منه إلا أن انسحب من المعركة وغادر بلاد الشام باتجاه مصر خوفاً من خلعه من الحكم، وبذلك ترك البلاد لقمة سائغة لتيمورلنك يفعل بها ما فعله في المناطق التي استولى عليها من قتل السكان ونهبهم والتمثيل بجثثهم وأساليب همجية أخرى[2].

وبحكم الناصر فرج نكون قد رسمنا صورة لأوضاع السلطنة عموماً وأوضاع بلاد الشام ضمنها قبل قدوم حملة تيمورلنك للمنطقة.

٦- أعمال تيمورلنك ونشاطاته العسكرية في بلاد الشام:

ما كاد الظاهر برقوق يبدأ برسم السياسات الاقتصادية والعسكرية التي تدفع البلاد قدماً إلى الأمام إلا وظهر تيمورلنك من الشرق بجيوش جرارة لا قبل لمالكي زمام الأمر بدفعها، فاحتل شيراز وتبريز أثناء مسيره للعراق، وتابع زحفه فوصل بغداد وقتل الكثير من سكانها، ونهب أموالها وأموال نائبها لكنه أنزله في مكان يليق به، ثم أعلم الظاهر برقوق بالأمر[3].

بعث تيمورلنك قسماً من جيشه إلى الرها حيث تمكن الجيش العربي الإسلامي من هزيمة جنوده[4]. وفي هذه الأثناء بعث تيمورلنك كتاب تهديد للسلطان المملوكي برقوق يطالبه فيه بالخضوع المطلق لملك الملوك، وإلا فمصير أمته الهلاك وكان ما جاء في الكتاب:

((ومن أعجب العجائب تهديد الرتوت بالتوت، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع، نحن خيولنا برقية، وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، ولبوسنا مصرية، وأكفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب، أن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة، (وَلاَ تَحْسَبَنَّ

١- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢١٧.

٢- المقريزي: شذور العقود في ذكر النقود، النجف، المطبعة الحيدرية، المطبعة الخامسة، ١٣٨٧ هـ /١٩٦٧م، ص ٢٤٧-٢٤٨. المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٩-١٠٤٢ – ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ١٢، ص ١٦٨-٢٢٠-٢٣٧ – ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٦ – دهمان: ولاة، ص ٢٧٨ – عودات: المرجع نفسه، ص ١٢٠.

٣- ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص ٣٦٤ – العسقلاني (ابن حجر): أنباء الغمر بأنباء العمر، بيروت، وزارة المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ج ٣، ص ١٥٠-١٥١ – ابن صصري: المصدر نفسه، ص ١٤٠ – الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ٤٢ – فياض (محمد): تيمورلنك، مصر، مطبعة المعارف، ص ٩٥- العلبي (أكرم): تيمورلنك وحكايته مع دمشق، دار المأمون، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م ص ١٠٢.

٤- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٤٨-٤٩ – عبد السيد (حكيم أمين): قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٣٨٦ هـ /١٩٦٧م ص ١٢٦.

الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ {١٦٩} فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {١٧٠}))[١].

الفار الفار من الزوايا، وطول البلايا، واعلموا أن هجوم المنية، عندنا غاية الأمنية، إن عشنا عشنا سعداء، وان قتلنا قتلنا شهداء (فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)[٢]. ابعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا، قبل أن ينكشف الغطاء)[٣].

بعدها قفل تيمورلنك عائداً إلى بلاده ليدافع عنها نتيجة مهاجمتها من طقتمش خان ملك القبجاق وما وراءها[٤].

استغل السلطان برقوق انسحاب تيمورلنك من المنطقة فجهز السلطان أحمد وبعثه إلى بغداد وأعطاه الخيل والقماش، فعاد وجلس على سرير ملكه، وسار برقوق إلى حلب وأقام بها استعداداً للمعارك المقبلة وأخذ يتلقى الهدايا من نواب القلاع[٥].

لم تتح الظروف لبرقوق إتمام مهمته إذ توفي وخلفه ابنه السلطان فرج، ولما سمع تيمورلنك بوفاته عاد سريعاً ونزل بخراسان، ثم قدم تبريز واستناب عليها ابنه ميران شاه وأكمل طريقه إلى بغداد ففتحها وفر سلطانها أحمد بن أويس والتجأ إلى قرا يوسف التركماني ثم خرجا إلى بلاد الروم[٦].

قرر تيمورلنك التوجه نحو بلاد الشام، أما أسباب توجهه فهي الثأر لقتل رسله بالرحبة سنة ٧٩٥ هـ /١٣٩٣م، وإيواء المماليك للسلطان أحمد بن أويس الجلايري، وأسر قريبه اطلمش، وتحالف المماليك مع عدوه التقليدي طقتمش خان لملك القبجاق[٧]. والمؤكد أن هجومه على

١- سورة آل عمران: الآيتان، ١٦٨-١٦٩.

٢- سورة المائدة: الآية ٥٦.

٣- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٥١-٢٥.

٤- ابن خلدون: التعريف، ص ٣٦٤- ابن خطيب الناصرية (صلاح الدين أبي الحسن): الدر المنتخب في تكملة تاريخ مملكة حلب، صورة مصورة موجودة بمكتبة الدكتور سهيل زكار عبارة عن جزاين الأول ٦٧٦ ورقة، والثاني ٤٤٠ ورقة ج ١ ورقة ٣٥٠- ابن قاضي شهبة (تقي الدين أحمد): تاريخ ابن قاضي شهبة، دمشق، ١٩٧٧م، ج ١، ق ٣، ص ٥١٣- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١١٤.

٥- ابن صصري: المصدر نفسه، ص ١٥٩- ابن خلدون: التعريف، ص ٣٦٥.

٦- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٣٥١ – المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٢١ – ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١١٧- ابن الطباخ: أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٣٩٩.

٧- العلبي: المرجع نفسه، ص ١١٩ – عبد السيد: المرجع نفسه، ص ١٢٩.

البلاد كان بدافع اقتصادي بدليل توقفه عند دمشق، وأسره للصناع والتجار، وانتقاماً لقتل رسوله الذي بعثه للقاهرة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥م، حيث سلمه السلطان للأمير علاء الدين الطبلاوي وفرض عليه إقامة جبرية ثم حبسه الظاهر بقلعة الجبل، لكن سودون نائب الشام قتله فاعتبر تيمورلنك قتل الرسول حجة لمهاجمة بلاد الشام[1].

أمر السلطان فرج بن برقوق نواب الشام بالتوجه إلى حلب ليقرروا ما سيقدمون عليه بشأن تيمورلنك.

ضم جيش تيمورلنك قوميات مختلفة، بينما كان تعداد الجيش العربي المسلم ضخماً ضم أحسن المحاربين وزود بأسلحة كافية لصدأى هجوم، لكن فقدان التعاون بين الأمراء أضاع الكثير من الفرص لكسب المعركة فقد جمع المؤيد شيخ نائب طرابلس نواب الشام، وعرض عليهم خطورة الموقف وقوة تيمورلنك ودهاءه، وأشار عليهم بإغلاق المدينة والخروج إلى ظاهرها للقاء العدو، لكن خطته لم تحظ بالقبول، وبينما أخذ النواب في الإعداد لمواجهة تيمورلنك استولى هو على قرية حيلان، والتقت طلائع جيشه مع المسلمين، وكانت موقعة هائلة بين الفريقين مال النصر في البداية للمسلمين، ثم مالت الكفة لجنود تيمورلنك الذين لاحقوا عسكر المسلمين فهربوا باتجاه المدينة ودخلوها من باب إنطاكية أحد أبواب حلب وخرجوا منها إلى جهة دمشق[2].

دخل تيمورلنك مدينة حلب وخربت جيوشه معالم المدينة العمرانية والثقافية والدينية والاقتصادية، فقد نقبوا القلعة وخربوها وصرفوا المياه عنها، كما قتلوا عدداً لا يحصى من الناس بلغ الآلاف عدا من هلك تحت حوافر الخيل حتى قيل صارت الجثث طول قامة، كما انتهكوا حرمة الجوامع فاعتدوا فيها على النساء وأخذوا الكثيرات سبايا، واستولى مع جنوده على أموال المدينة من الجواهر والأشياء النفيسة والقيمة حيث وزعها على أمرائه واستمر السبي والنهب في المدينة مدة شهر نستطيع القول إنه خلال هذه الفترة أضحت المدينة خراباً لكثرة الدمار فيها، فتكون حلب قد تعرضت في هذه الغزوة لأبشع أساليب الانتقام من قبل المغول.

ونستطيع التأكيد أن آثار هذه الحملة كانت أشد وطأة من مثيلاتها في عهد هولاكو

١- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١١٨ – حمادة: دراسة وثقية، ص ٣٥٥-٣٥٦- العلبي: المرجع نفسه، ص ١٢٦.
- تزوكات تيموري: تحرير أبو طالب حسيني تربتي بفارسي، طهران، ميدان بهارستان ١٣٤٢ هـ / ص ١٤٥.

٢- العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ١٩٤-١٩٧ – ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١١٩- الصيرفي: نفس المصدر ج ٢، ص ٧٥ – ابن إياس: بداية، ج ١، ق٢، ص ٥٩٦-٥٩٧ – منقريوس: تاريخ دول، ج ٢ ص ٢٩٧-٢٩٤ – عبد السيد: نفس المرجع ص ١٣٣-١٣٤

وغازان، حيث اقتسمت أراضي حلب ونهبت من قبل التركمان المحيطين بها إلى جانب البدو. أما مصير الأمراء الذين حوصروا بالقلعة فإن تيمورلنك أعطاهم الأمان فنزلوا إليه، عندئذ غدر بهم وقيد الجميع ما عدا الأمير دمرداش فإنه خلع عليه وأكرمه، وأخذ تيمورلنك يلومهم ويوبخهم وخاصة سودون نائب الشام لقتله رسوله، وأكثر له من الوعيد[1].

بعد سقوط مدينة حلب سقطت كل من مدينتي حمص وحماة في يد ميران شاه بن تيمورلنك وقد أذاق أهل حماة أنواعاً من العذاب ماثلت زميلتيها حلب ودمشق فيما بعد كما نهب جنوده خارج المدينة، واسر الرجال وسبي الأطفال، ودك جميع ما خرج عن سور المدينة، كما قتل الكثير من سكانها، وأشعل النار في أرجاء المدينة[2].

كل هذا التخريب والتدمير من قبل تيمورلنك لمدن الشام ولم يخرج السلطان المملوكي بمصر إلا بتاريخ الأربعاء الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م. فتوجه إلى غزة وأطلق ثلاثة معتقلين وهم أمير السلاح تغري بردي اليحياويط، وصاحب الديار المصرية تمربغا المنجكي، وآقبغا الجمالي الأطروش، نائب حلب، ولم تذكر المصادر التاريخية عن سبب اعتقال هؤلاء الأمراء، ولم تفد بمعلومات عن سبب إطلاقهم بينما اكتفت بالإشارة إلى أنه عينهم نواباً، فتولى تغري بردي نيابة دمشق، وآقبغا الجمالي نيابة طرابلس، والمنجكي نيابة صفد والأمير طولو نيابة غزة، ثم رحل إلى دمشق ودخلها واستقر بها، بينما ظل تيمورلنك معسكراً بقواته تحت جبل الثلج[3] تلتقي طلائع عسكره مع طلائع قوات المسلمين[4].

وتشاور الأمراء مع الناصر فرج بن برقوق، وأبدى معظمهم مساوئ التقدم للهجوم بسبب خسائر الجيش الإسلامي وما لحق الناس من الضرر، والقوات الباقية معدة للدفاع فقط، وأشار تغري بردي على السلطان بقبول الصلح مع تيمورلنك بسبب ما عليه العسكر من اختلاف الكلمة، فبعث السلطان فرج إلى تيمورلنك بموافقته على الصلح مع الاعتذار عن

١- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١٢٠ – النجوم، ج ١٢، ص ٢٢٢-٢٢٤ – الصيرفي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٦- ابن إياس: المصدر نفسه ج ١، ق ٢، ص ٥٩٨ – العلبي: تيمورلنك، ص ١٣٢، زكار: المرجع نفسه، ص ٥٧٨.

٢- ابن تغري بردي: النجوم، ج١٢، ص٢٢٥-٢٢٦- ابن إياس: نفس المصدر ج١، ق٢، ص٦٠٠- عبد السيد: المرجع نفس ص١٣٦

٣- جبل الثلج وجبل لبنان وجبل اللكام: هذه الجبال متصلة ببعضها فكونت جبلاً ممتداً من الجنوب إلى الشمال، فالطرف الجنوبي لهذا الجب بالقرب من صفد، وهو يمتد إلى الشمال ويتجاوز دمشق، ويسمى إذا صار في شمالها جبال شنير، وجانبه المطل على دمشق قاسيون، ويمر غربي بعلبك، ويسمى الجبل المقابل لبعلبك جبل لبنان. – انظر ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٣٣ – حاشية المحقق رقم /٢/.

٤- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٤١- العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ١٩٩ – الصيرفي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٠-٨٢ – العلبي: المرجع نفسه، ص ١١٤-١٥٢.

الهجوم الذي قام به بعض الأمراء تجاه جيش المغول.

أما أسباب قبول السلطان فرج للصلح فهي انخفاض الروح المعنوية لأمرائه وجيشه بالإضافة إلى عودة قسم من جيشه إلى مصر ليسلطنوا الأمير لاجين الجركسي، فأقدم على هذا الصلح وقفل عائداً إلى مصر مع قسم من قواته حيث لاقوا المشقة والعذاب[1].

أما العساكر التي بقيت في دمشق فإنها على الرغم من فقدان سلطانها وهروب أمرائها فإنها أغلقت أبواب دمشق وركبت أسوارها، ونادت بالجهاد وتهيأ أهل دمشق لذلك، لكن تيمورلنك زحف على المدينة، فقاتله أهل دمشق من أعلى السور، واسروا عدداً من جنده فلجأ إلى خديعتهم وطلب الصلح معهم، ونجح إذا اقتنع أهل دمشق بكلامه وأرسلوا إليه وفداً مؤلفاً من قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح ومجموعة من القضاة كان منهم ابن خلدون، وقد استطاع تيمورلنك إقناع ابن مفلح بضرورة فتح أبواب دمشق، حيث نمق له في الكلام وقال له:

((هذه بلدة الأنبياء والصحابة، وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن أولادي، ولولا حنقي من سودون نائب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتها، وقد صار سودون المذكور في قبضتي وفي أسري، وقد كان الغرض من مجيئي إلى هنا، ولم يبق لي الآن غرض إلا العودة، ولكن لا بد من أخذ عادتي من التقدمة من الطقزات))[2].

استطاع ابن مفلح التأثير على الناس وإقناعهم بضرورة الصلح، فأخرج الطقزات إلى تيمورلنك واتجه مع الوفد إلى معسكره، فرحب بهم وعينهم في عدة وظائف للمرحلة القادمة تراوحت ما بين قضاة القضاة، والوزير، ومستخرج الأموال ونحو ذلك، ثم ردهم إلى دمشق ومعهم كتاب الأمان، فقرئ بالجامع الأموي، عندئذٍ فتح أحد أبواب دمشق وهو الباب الصغير فدخل جنود تيمورلنك منه، ولما استقروا في المدينة انتقموا منها أبشع انتقام، فقد فرض تيمورلنك على أهل دمشق كمية كبيرة من الأموال جبيت عدة مرات رافقها أساليب وألوان متعددة من التعذيب والاهانة والضرب والعصر والحرق بالنار، كما صادر جنوده الحيوانات والأسلحة، وهتكوا الأعراض وهدموا المنشآت الدينية وأحرقوها كالجامع الأموي مما أدى إلى تعطيل الصلوات، كما هدموا قلعة دمشق واستمر جنوده في تعذيب المدينة تسعة عشر يوماً. بعدها قبض تيمورلنك

١- العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ٢٠٠- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ٢٢- النجوم، ج ١٢، ص ٤٦- الصيرفي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٨٥- عطا الله: نيابة غزة، ص ٢١٣ -- العلبي: المرجع نفسه، ص ٥٦.

٢- الطقزات: هي باللغة التركية التسعة والمقصود هنا أن يخرجوا لتيمورلنك من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والهدايا تسعة. انظر ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٣٩.

على ابن مفلح وألزمة مع عدة أمراء أن يكتبوا له خطط دمشق قسمها بين أمرائه، هذا كله أدى لغلاء الأسعار وفقدان بعض المواد الغذائية الذي أدى بدوره إلى حدوث المجاعة، وأدت هذه الغزوة إلى آثار اجتماعية واقتصادية كثيرة درست خلال البحث[1].

ومع أن غايات الهجوم اقتصادية بدليل أسره الصناع والتجار وأصحاب المهن في دمشق، لكن كان في ذهنه عدم التوقف عند دمشق بالذات بل بالعبور إلى شمال أفريقيا، ويورد ابن خلدون ذلك بالتفصيل عندما كان يتحاور مع تيمورلنك فسأله عن مدن المغرب فأخذ يجيبه ثم قال له: **((لا يقنعني هذا، وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها، أقاصيها وأدانيها، وجباله وأنهاره، وقراه، وأمصاره، حتى كأني أشاهده. فقلت ليحصل ذلك.. وكتبت له بعد انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك، وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون قدر اثني عشرة من الكراريس المنصفة القطع))**[2].

وفي طريق العودة مر إلى حلب ودخلها وفعل بها ما قدر ثانياً، ثم سار منها حتى نزل على الرها، ماردين، فلما وصل إليها نزلها عسكره، واستنزلوا صاحبها الظاهر مجد الدين عيسى إذ تحصن بقلعتها، وظلوا يحاصرون المدينة عشرين يوماً، فلما يئسوا من الاستيلاء عليها، رحلوا عنها وعطلوا آبارها وخربوها.

بعدها سار تيمورلنك إلى بغداد وحاصرها مدة شهرين، ثم أخذها عنوة، وخربها، وقد ذكر ذلك في كتابه تزوكات تيموري حيث قال: **((وقد وجدت أنه من المستحسن أن أذهب بنفسي لإخضاع المدينة وقلعة بغداد لذلك رجعت من طريق تبريز بسرعة إلى بغداد وحاصرت المدينة وقد دام الحصار شهرين وبعض الأيام. وبعدها أخضعت المدينة والقلعة))**[3].

بعد تدميره لبغداد سار تيمورلنك باتجاه قراباغ، ثم كتب إلى أبي يزيد بن عثمان[4] صاحب الروم أن يخرج قرا يوسف وأحمد بن أويس من ممالك الروم، غير أن أبايزيد رد عليه رداً خشناً مما دفع تيمورلنك إلى الإغارة عليه وأخذه أسيراً. فمما قاله تيمورلنك في ذلك:

١- ابن خلدون: التعريف، ص ٣٦٦-٣٦٨ – العسقلاني: أنباء، ج ٤، ص ٣٠٧-٢٠٩ – ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١٢٣-١٢٤ – النجوم، ج ١٢، ص ٢٣٨-٢٣٩-٢٤٠-٢٤٥ – ابن إياس: بدائع، ج ١، ق ٢، ص ٦٠١- الصيرفي: نزهة، ج ٢، ص ٨٥- ابن العماد الحنبلي (عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نسخة مصورة عن نسخة المصنف المحفوظة في دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٠ هـ، ج ٧، ص ١٣٨-١٤٠ – مقريوس: تاريخ دول الإسلام، ج ٢، ص ٢٩٥- فياض: تيمورلنك، ص ١٠٣- عبد السيد: المرجع نفسه، ص ١٣٨-١٤٠- العلبي: المرجع نفسه، ص ١٦٢.

٢- ابن خلدون: التعريف، ص ٣٧٠.

٣- تزوكات: تيموري: المصدر نفسه، ص ١٥١ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٦٥.

٤- يقول ابن تغري بردي في المنهل، ج ٣، ص ٥١٠ أن صواب الاسم بايزيد.

((أصبح من واجبي أن أقضي على قرا يوسف وإيقاظ قيصر من نسيانه))[1].

أما سليمان بن أبي يزيد فإنه دخل مدينة بورصة[2]، وأخذ أموالها، ثم سار إلى استنبول حيث صالح أهلها، وعاثت عساكر تيمورلنك في البلاد، وأحرقوا مدينة بورصة وأضافوا ستة أشهر ينهبون ويفسدون[3].

طبعت حملة تيمورلنك بلاد الشام بطابع الدمار والخراب، فقد تأثر المجتمع على كافة الصعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وذلك باختلال التوزع الديمغرافي للسكان ببلاد الشام، واختفاء الكثير من الصناعات التي اشتهرت بها المنطقة، وإتلاف أكثر المحاصيل الزراعية، وزيادة البطالة بين أفراد المجتمع، وازدياد الادعاءات والشعوذات بين أفراد المجتمع وإلى مضار اجتماعية أخرى كزيادة انتشار شرب الخمر والحشيش وغيره من المضار التي ظل السكان يرزحون تحت وطأة ثقلها حتى سيطر العثمانيون على المنطقة، ويعتبر الغزو التيموري فترة انتقال بين عهدين، عهد القوة، وعهد الضعف في دولة المماليك ذلك أن عصر المماليك البحرية، وبداية عصر البرجية اتسم بالقوة، إذ حرر المماليك المناطق التي سيطر عليها الفرنج تحريراً كاملاً، ثم أنهم قضوا على تحركات الأرمن ونشاطاتهم وضموا دولتهم إلى أراضي بلاد الشام، إضافة إلى ازدهار الزراعة والصناعة والتجارة بشكل عام، غير أنه وبعد الغزو التيموري انهار المجتمع اجتماعياً واقتصادياً لكثرة الفساد والرشاوى وشرب الخمر، إضافة إلى الاضطرابات السياسية وكثرة الصراعات على السلطة، كل ذلك كان له آثار على الضعف العام للمجتمع.

ثانياً - حركات التمرد والعصيان وارتباطها بالمغول وأثرها على الوضع السياسي:

دفعت النزاعات المحلية بين أمراء بلاد الشام إلى استنجاد بعضهم بالعدو المغولي لتقوية مكانته وتعزيزها كما تعرض الحكم المملوكي في بلاد الشام لهزات عنيفة تمثلت في حركات الشغب والتمرد من قبل بعض الأمراء والمناهضين للسلطة، حيث حاولوا الانفصال عن السلطة المملوكية والاستقلال بمناطقهم مما دفعها إلى قتالهم.

١- تزوكات تيموري: المصدر نفسه ص ١٥٣.

٢- بورصة: وتعرف برصا أو برسا: مدينة عظيمة في الأناضول انظر ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص٢٢٧ حاشية رقم (٥)

٣- ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب ج١، ورقة ٣٥٤- المقريزي: السلوك ج٣، ق٣، ص١٠٩١- العسقلاني: أنباء، ج ٥، ص٥٥- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٤، ص ١٢٦-١٢٨ – النجوم، ج ١٢، ص ٢٦٧-٢٦٩ – الصيرفي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٠-١٥٢ – ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج٧، ص٦٥- فياض: المرجع نفسه، ص١٠٤-١٠٦ – عبد السيد: نفس المرجع ص ١٤٢-١٤٣

نتيجة هذا القتال فر قسم من الأمراء إلى بلاد المغول المعادية للمماليك احتجاجاً على السلطات المملوكية التي عملت فيما بعد إلى استمالتهم لجانبها. ويتساءل المرء لماذا فر هؤلاء الأمراء إلى المغول ولم يذهبوا إلى دولة أرمينية وكلاهما معاد للسلطة المملوكية، ولماذا استقبلهم المغول أعداء البلاد، ولماذا أعادتهم السلطات فيما بعد؟ كان هدف المغول من إيواء الأمراء الفارين إليهم هو الاستفادة من المعلومات الجغرافية والسياسية والعسكرية والإطلاع على طرق القتال عند المماليك التي كان يجهلها المغول، ومعرفة مكامن الضعف في الدولة المملوكية والاستفادة من نفوذ هؤلاء الأمراء عند مهاجمتهم بلاد الشام، بالإضافة إلى إضعاف الروح المعنوية لدى المماليك وإرباكهم. كما حمى المغول أمراء البدو الذين التجأوا إليهم لأغراض تجارية إلى جانب الاستفادة من قدراتهم العسكرية.

ولم يكن الأمراء الهاربين مصدر المعلومات الوحيد للعدو المغولي، فقد كان المغول يطلقون الجواسيس في بلاد الشام ليتصيدوا الأخبار عن حالة الجيش وتحصين المدن ويزودون سلطاتهم بهذه المعلومات. أما السلطات المملوكية فإنها عملت على إرضائهم لكي تجرد المغول من قوة هؤلاء الأمراء ولترفع الروح المعنوية لدى جيشها. أما سبب عدم لجوء هؤلاء إلى دولة أرمينية رغم عداوتها للمماليك فهو أن إمكانات أرمينية العسكرية لم تكن بمستوى المغول، فهي غير قادرة على حماية الفارين بالإضافة لتعرضها خلال فترة البحث لهجمات عسكرية من قبل المماليك.

كانت أولى حركات التمرد في المنطقة ضد السلطات المملوكية هي:

١- حركة سنقر الأشقر:

كان سنقر الأشقر نائباً لدمشق وكان يرى حقه بالسلطة بعد الظاهر بيبرس، فعارض استئثار قلاوون بالسلطنة بالقاهرة، ولم يحلف له يمين الولاء، ولم يرض بخلع سلامش وسلطنة قلاوون، إضافة إلى قيامه سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٨٠م بإعلان نفسه سلطاناً بدمشق واتخذ لقب الكامل. سعى الأشقر إلى تثبيت سلطانه في بلاد الشام فأرسل عساكره إلى غزة لمنع القوات المصرية من الزحف إلى الشام لكن خانته معظم عساكره، إذا انضموا إلى العسكر المصري، واستطاع المصريون هزيمته ففر إلى الرحبة وكاتب مباشرة السلطان المغولي أبغا وشرح له الاختلاف الواقع بين العساكر الإسلامية وحثه على قصد البلاد بجيوشه، ووعده بالانحياز إليه لمساعدته، كما راسله أمير البدو عيسى بن مهنا بمثل ذلك[1].

١- اليونيني: ذيل مرآة، ج ٤، ص ٤٠-٤١ – أبو الفداء: المختصر، ج ٤، ١٣-١٤- النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٤-١٥-١٩ – الذهبي: دول، ج٢، ص١٧٩-١٨١ - ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٣٢٥ - ابن حبيب: تذكرة، ج١، ص٥٧- العيني: المصدر نفسه ج ٢، ص ٢٣٢ – بن إياس: المصدر نفسه، ج١، ق١، ص٣٥٠- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٧٥- دهمان: ولاة، ص ٦٦-٦٩.

ولكن لماذا كاتب سنقر الأشقر المغول ودعاهم للقدوم إلى المنطقة؟.

أن الأشقر أراد أن يقضي على السلطان المملوكي قلاوون وجيشه لتثبيت نفسه سلطاناً، ولكنه جهل أن المغول لو قدموا المنطقة وتغلبوا على العساكر الإسلامية فإنهم لن يبقوه ولن يحققوا مطامعه، وسوف يلقى المصير المحتوم للخونة وهو القتل.

وبناء على طلب سنقر الأشقر، وإضافة إلى الإلمام بظروف الخلاف بين المماليك من قبل المغول قدم هؤلاء إلى المنطقة سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م فتنبه السلطان قلاوون إلى خطر قدومهم وانحياز الأمراء الهاربين إلى جانبهم فبادر مباشرة إلى عقد الصلح مع الأشقر وأخذ منه تعهداً بعدم الانضمام إليهم، فوفى السلطان بوعده وحضر مع السلطان في موقعة حمص. وبعد ذلك عمدت السلطات بالتدريج إلى تجريده من صلاحياته السياسية والإدارية شيئاً فشيئاً[1].

٢- حركة سيف الدين قبجق:

كان قبجق قد عين نائباً لدمشق سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م، وحلف للسلطان لاجين يمين الولاء والإخلاص بحضور القضاة والأمراء[2]. غير أنه استشعر السوء سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨م وعلم بأن نائب السلطنة بمصر سيف الدين منكوتمر قد دبر حيلة للتخلص من مجموعة من أمراء ونواب بلاد الشام الذين يعمل منهم المماألة والمناوأة. فأرسل السلطان إليهم بالحضور إلى مصر فرفضوا لعلمهم بأنها مكيدة، فأمر بالقبض على كل من سيف الدين بكتمر السلحدار أحد مقدمي الجيوش المنصورة، والأمير سيف الدين عزا الصالحي. وزود الرسل بمعلومات تفيد أنه من لم يستطع القبض عليه يسقى السم ويقتل، فسقى السم لسيف الدين طقطاي فمات بحلب، عندئذ علم الأمراء بالحيلة، فاحتاطوا لذلك، ففر بزلار مع خمسة من الأمراء إلى سنجار وظل بها حتى توفي. بينما توجه سيف الدين بكتمر السلحدار، وفارس الدين الألبكي، وسيف الدين غزار إلى حمص واجتمعوا بقبجق وأطلعوه على الحال، فتوسط مع الأمراء المقيمين بدمشق بشأنهم، لكن هؤلاء أنبوه ووبخوه على إيوائه للمطلوبين. أمام هذه المعطيات رأى قبجق أن أمره قد انتقض فالعساكر في جميع المدن الشامية إضافة إلى السلطات المصرية تستعد لمحاربته، فما كان منه إلا أن التجأ مع المذكورين سابقاً إلى الأراضي المغولية للالتحاق بخدمة غازان[3]. وكانت هذه الخطوة أولى الخطوات الخاطئة التي

١- أبو الفداء: ج ٤، ص ١٤-١٥ – النويري: ج ٣١، ص ٢٣- الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٨٢-١٨٣ – ابن الوردي: ج ٢، ص ٣٢٦-٣٢٧.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١ ص ٣٣٠.

٣- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧-٣٨ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٥٢-٣٥٥ – الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢٠٢- ابن كثير، البداية، ج ١٤، ص ٣ – ابن حبيب: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٠.

أتبعها قبجق والتي عادت بالكارثة الكبرى على بلاد الشام إذ نتج عنها قدوم غازان بجيوشه الجرارة واستباحة كافة مدن الشام. ولما وصل الأمراء الفارون إلى رأس العين طلب منهم المغول أن يسير قبجق وحيداً إلى غازان ويتأخر عنه أتباعه حتى يرد مرسوم غازان، لكن قبجق امتنع عن قبول ذلك وأبى الدخول إلا بالطلب[1]. والجماعة الذين معه. فتحقق مطلبه ودخل الأمراء إلى الموصل، ثم توجهوا نحو بغداد، وبعدها إلى غازان حيث كان يقيم بأرض السيب من أعمال واسط فأكرمهم وأحسن إليهم.

ومن الطبيعي أن يستقبلهم غازان ويحيطهم بالرعاية والإحسان ليصل بواسطتهم إلى معرفة معلومات عسكرية وسياسية جديدة تفيده في تحقيق انتصارات جديدة على المماليك، ليكسب دولته نصراً جديداً ويكسب بالتالي ثقة وولاء كافة أفراد المغول. وقد ساعدت غازان الظروف السياسية التي ألمت بالمماليك إثر مقتل السلطان لاجين وعودة الناصر محمد إلى الحكم، فبعد المعلومات التي وصلته عن ذلك، مع الحض المستمر لقدومه للمنطقة من قبل الهاربين قدم إلى بلاد الشام سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩م بجموع عظيمة من قوميات مختلفة كرج، أرمن وغيرهم، وجلب معه هؤلاء الأمراء وذلك للتخطيط ولمساعدته ضد أخوانهم، والتقى الجميع في مجمع المروج، لكن الهزيمة في البداية حلت بغازان نتيجة ارتفاع الروح المعنوية في بداية المعركة للعساكر المسلمة، حيث إن الأرض أرضهم، والذي يقاتل من أجل أرضه يختلف عن الذي يقاتل من أجل الاستيلاء على الأرض. كما حظي المسلمون بدعم الرعية لهم من العامة والفقهاء والعلماء، إضافة إلى انضمام البدو والتركمان إليهم، بالإضافة لامتلاك المماليك طاقات حربية هائلة وخطط جديدة يجهلها المغول ساعدتهم على النصر في بداية المعركة. وكاد غازان أن يترك أرض المعركة لكن قبجق منعه، وحثه على القتال، ومناه بالظفر وقد برر قبجق فعلته فيما بعد بأن قصده كان القبض على غازان عند استمرار الهزيمة بجيوشه[2].

كافأ غازان قبجق فعينه نائباً على دمشق، وفي مرسوم التولية نعته بألفاظ طنانة وهي لا تقال إلا لمن قدم للمغول خدمات عظيمة ففي مضمون الفرمان ما يلي:

((فرأينا أن الجناب العالي الأوحدي المؤيدي العضدي النصيري العالمي الذخري الكفيلي المهدي المشيدي المجاهدي المشيري الأثيري العمامي النظامي السيفي سيف الدين ملك الأمراء في العالمين

١- الطلب: هو الأمير الذي له لهم معقود وطبلخاناه، ويخضع لأوامره ٢٠٠ فارس أو ١٧٠ فارساً زمن اليونيني. وقد صار يطلق على فئة من الجيش كثيرة العدد، يتولى قيادتها أحد الأمراء. انظر النويري: ج٣١ ص٤٢ حاشية المحقق رقم (١)

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٨٥- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ١١٦١.

ظهير الملوك والسلاطين قبجق، وهو المخصوص بهذه الأوصاف الجميلة، والمحتوى لهذه السمات الجليلة، فإنه أذخرته المهاجرة إلى أبوابنا، ووصله القصد إلى ركابنا فرعينا له هذه الحرية، وقابلناه بهذه النعمة، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ مكين، وخاطبنا لسان الاختيار أن نعم (مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)[1]، وعلمنا أنه يبلغ الغرض من صون الرعايا ويقوم مقامنا في ساير القضايا، فلذلك رسمنا أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الشامية والحلبية والحموية والحمصية، وشيرز وبغراس وإنطاكية. نيابة تامة كاملة شاملة، يؤتمر فيها بأمره، ويطاع فيها نهيه، ولا يخرج أحد عن حكمه، له الأمر التام، والحكم العام، وحسن التدبير، وجميل التأثير بالإحسان لأهل البلاد، واستجلاب الولاء والوداد، ومؤمن مرتبطين الأمال، ناظراً إلى من دخل تحت الطاعة والامتنان)).

ثم أمر غازان في هذا النص الأمراء، والنواب طاعة قبجق طاعة عمياء، وهذا دليل على مدى ما قدمه من خدمات، ولولا قبجق وقيادته لجيش الأعداء وحثه غازان على متابعة القتال لما حقق الأعداء ذلك النصر في موقعة حمص، ولولاه لما استطاعت جيوش العدو اجتياح بلاد الشام وإخضاعها لهم، فإذا ما قدم بعض المؤرخين تبريراً لقبجق بأنه قصد من وراء تثبيت غازان في أرض المعركة هزيمته، فإن الدلائل تشير إلى النتيجة العكسية لعمله وفيما يلي أوامر غازان للأمراء.

((... وسبيل الأمراء والمقدمين.. أن يطيعونه سراً وجهراً، ولا يعصون له أمراً، وإن أمرهم إليه وقربهم لديه، مما يحصل لهم به رضاه عنهم وقربه منهم، وليلزموا عنده من الأدب والخدمة ما يجب، وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على المصالح كما يجب))[2].

ولشدة إخلاص الأمراء الهاربين لغازان فإنه عينهم نواباً على مدن الشام بعد رحيله عنها، فالأمير سيف الدين قبجق عينه على دمشق، ويكتمر السلحدار على حلب وحمص، والأمير فارس الدين البكي على صفد والسواحل. بعدها طلب قبجق أعيان البلد وحلفهم على إخلاصهم لغازان، ولكن موقفه هذا لم يدم طويلاً إذا استشعر الخوف من المصير المحتوم له فبادر إلى طلب العفو من السلطات، وشارك في الحملات العسكرية ضد أرمينية وبقيت علاقاته جيدة مع السلطات، وكفر عن سيئاته الماضية في وقعة شقحب حين قام بأعمال حربية ضد المغول[3]. انتهت هذه الحركة بمصير محزن على بلاد الشام، لكن حركة أخرى

١- سورة القصص، الآية ٢٦.

٢- ابن ايبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٢٥-٢٧.

٣- ابن ايبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٣٥-٣٦ — النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٤ — ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٠- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤، ص ١١٦١ — المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩١ — دهمان: ولاة، ص ٨٤-٨٦.

ما لبثت أن قامت بعد أن تزعمها قرا سنقر المنصوري وآقوش الأفرم وأمراء البدو وذلك احتجاجاً على أساليب السلطات في معاملتهم.

٣- حركة قرا سنقر المنصوري:

لم يطل الوقت كثيراً بعد التجاء قبجق إلى العدو المغولي حتى انضم إليه مجموعة من المماليك كان أهمهم على الإطلاق قرا سنقر المنصوري، جمال الدين الأفرم نائب دمشق، أمير البدو مهنا بن عيسى ثم ابنه سليمان.

وكان سبب هروبهم الخوف من التصفيات الجسدية التي بدأها الناصر محمد ضد الذين عارضوه في عودته إلى الحكم. كان قرا سنقر قد عين بعد خلع الأفرم سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩م وأقام سنة يشهد كل يوم مصرع واحد من زملائه، حيث نكل الناصر ببعضهم، وقتل بعضهم الآخر. عندئذ شعر قرا سنقر أن الخطر يقترب منه فطلب من الناصر نقله من نيابة دمشق لحلب، وهدف من وراء ذلك بعده عن سطوة السلطان وشره، فلبي طلبه، بعدها سافر إلى حلب وأقام علاقات جيدة مع العدو، وأفضى إلى الأمير مهنا بن عيسى بسره وخوفه من بطش السلطان به. وبقيت الأمور على حالها من الخوف والرهبة حتى أراد قرا سنقر الحج، فطلب من السلطان الإذن، فأذن له وسافر مع مجموعة من الأمراء، لكن خوف السلطان منه بقي موجوداً فكتب إلى نواب الشام بعدم تمكينه من دخولها إذا رجع، فعلم قرا سنقر وهو في الطريق بنية السلطان تجاهه، فما كان منه إلا أن التجأ إلى مهنا بن عيسى مستجيراً، وانضم إليه جمال الدين آقوش الأفرم، وبدر الدين الزردكاش من دمشق والتحق الجميع بالمغول[1].

ولما عام السلطان المغولي خدابنده بقدومهم سير رسولاً يحمل كتاباً مضمونه. «انكم عديتم بلادي، ودستم أرضي، وطلبتم بابي، فأهلاً بكم وسهلاً، وقد سيرت إليكم نسخة الأمان مائة يمين، وأنا أعطيك بغداد، والأمير جمال الدين سنجار وديار بكر ومهما طلبتم عندي»[2].

ويلاحظ من هذا النص مدى التشجيع الذي حظي به هؤلاء من قبل خدابنده، فقد أراد المغول الاستفادة من الأسرار العسكرية عن دولتهم في هذا الوقت وذلك لكي يحقق خدابنده لشعبه انتصاراً في عهده يخلد ذكره كأسلافه من جنكيزخان وهولاكو وغازان، إضافة إلى الاستفادة منهم في حروبهم فيما بينهم وهذا ما أوردته المصادر بشأن ذلك.

١- المنصوري: التحفة، ص ٢٣٥- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٣-٦٦- ابن أيبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٢١٨-٢٣٣- الصفدي: (صلاح الدين خليل): تحفة ذوي الألباب منشورات دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٢٢٠- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٦٣- دهمان: ولاة، ص ١٤٦-١٤٧-١٥١.

٢- ابن ايبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

ذلك أن خدابنده فوض لقرا سنقر جميع أمور المملكة يفعل بها ما يشاء ويراه مناسباً، وذلك لتشجيعه على البقاء، وللوصول إلى معرفة الأسرار القتالية المملوكية، كما أنه أقطعه مراغه واقطع الأفرم همذان، والزردكاش نهاوند.

بدأ قرا سنقر بالتخطيط والتنظيم فاستخرج الأموال العظيمة من جميع أقاليم المملكة، كما رتب الممالك، وأقطع الأمراء المغول الإقطاعات الكافية، ورتب لهم الاستادارية من مماليكه، وأقطع البلاد الخراب للتركمان والأكراد وألزمهم بالاستقرار وممارسة الزراعة وتربية المواشي. كما أنه قاد عساكر خدابنده سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣م في حروبه ضد طقطاي - مغول المشال - وأسفرت نتائج الحروب عن انتصار خدابنده بسبب الخطة القتالية التي وضعها قرا سنقر والتي اعتمد فيها على التنسيق حيث عين عشرة مقدمين قوامين بعد إعطائهم العتاد الجيد وتزويدهم بالخيول، وأشرك مماليكه البالغ عددهم مائتي مملوك في الحرب، وأعطى الزراقين منهم آلات النفط، ووضع خمس مائة منهم في مقدمة الجيش، وهذا ما كان جديداً على المغول الذين يجهلون استخدام النفط في الحروب، ورتب ثلاث مائة جمل كوشات على البخاتي فانتصر خدابنده بفضل ذلك[1].

وإذا ما كان قرا سنقر قد أفاد المغول في المجال العسكري، فإن الأفرم التزم الهدوء، لكن الاثنين قويا عزم خدابنده على الدخول للشام وضمنا له أخذها خاصة بعد الأنباء الواصلة إلى قرا سنقر ومفادها أن العساكر الإسلامية متفرقة يربعون الخيول والسلطان في الصيد ليس عنده جموع، فما كان من خدابنده إلا أن أشار على الأمراء بالتوجه نحو بلاد الشام والنزول على الرحبة سيما والآن نائبها بدر الدين بن اركني قد يسلمها لهم، لأن الأفرم هو الذي سعى للمذكور في نيابة الرحبة وأخذ له أمرة الطبلخانه، لكن ابن ايبك الدواداري أورد أن الأفرم ندم على ما اقترفه، وأظهر ندمه حين وجه كلاماً لقرا سنقر مضمونه:

«يا أمير جمال الدين، ترى نحن في اليقظة، أو في الأحلام، قد عدنا في جيوش الكفر بعد جيوش الإسلام، وما كفانا حتى نكون السبب في تجهيز أمة الكفر إلى أمة النبي صلى الله عليه وسلم، قال وبكيا جميعاً»[2].

وفي ذلك دلالة على أن بعض الأمراء لم يقدموا على الخيانة لولا التصفيات الجسدية التي كانوا يتعرضون لها.

١- ابن ايبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٢٣٤-٢٣٥-٢٤٥-٢٥٠-٢٢، ٢٥٣-٢٦٧-٢٦٩-٢٧٣-٢٧٦ - المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١١٥ - فهمي: المرجع نفسه، ص ٢١٩ - دهمان: المرجع نفسه، ص ١٤٧.

٢- ابن أيبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

على كل حال فإن المغول توجهوا نحو الرحبة التي تشكل قلعتها إحدى القلاع المملوكية الهامة في البلاد والتي كانت إحدى نقاط الارتكاز في الدفاع عن البلاد، لكن هذه الجيوش لم تستطع دخولها رغم محاصرتها عشرين يوماً. وعندما ما أخفقت في احتلالها، وعلمت بأن الجيوش المملوكية متوجهة نحوها عادت هذه الجيوش على أعقابها[1].

لم يستطع خدابنده أن يحقق مكتسبات عسكرية لدولته أثناء حكمه، إذ أخفق حتى في حملته التي توجهت إلى الرحبة.

وكما استطاع المغول إيواء معظم الأمراء الهاربين من البلاد فإنهم أووا أمراء البدو الذين يشكلون قوة عسكرية لا يستهان بها في فترة البحث، كما كان لأمراء البدو نفوذ وسطوة في البلاد، إذ أن السلطات كانت تحابيهم خوفاً مما كانوا يسببونه من اضطرابات أمنية تكون سنداً آخر لسيطرة العدو على المنطقة. ومن أهم أمراء البدو الذين احتموا بالمغول نور الدين زامل بن علي الذي توجه إلى بلادهم سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤م بسبب النزاعات بينه وبين عيسى بن مهنا، فمنحه هولاكو إقطاعاً بالعراق، لكنه لم يلبث أن عاد إلى الشام وراسل السلطان في طلب العفو فلم يجبه وأرسل إليه من امسكه واعتقله[2].

أما أطول مدة قضاها أمير من البدو في حماية المغول فهي المدة التي قضاها مهنا بن عيسى، وقد طلب منه السلطان المغولي أبو سعيد أكثر من مرة التعاون معه ضد السلطان المملوكي، وكان أبو سعيد يقدره ويرضيه. وقد أورد اليوسفي كيفية دخول مهنا واستقبال أبي سعيد له، فعندما دخل سأله عن سبب خروجه عن طاعة السلطان المملوكي فقال: «نحن ناس عرب، وعلينا طاعة مفروضة للملوك، ورأينا من سلطاننا أمراً فخشينا عاقبته، فخرجنا عن طاعته، فسير يقول: «اخرج من بلادي، فخرجت من بلاده إلى بلادك، ونزحت من طاعته، فإن قبلتنا أقمنا، وإن كنت تكره جوارنا رحلنا عنك، فالبر للبدوي متسع». فقال له أبو سعيد «البلاد بلادكم، وحلت بكم البركة»[3].

غير أن مهنا لم يتفق مع المغول ولم يتنازل عن شيء ولم يشجعهم على قدوم البلاد بل عاد إلى أهله وإلى طاعة السلطان[4].

على كل حال سببت هذه التمردات أضراراً اقتصادية واجتماعية للمجتمع الشامي حيث

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٦٦.

٢- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٨.

٣- اليوسفي: (موسى بن محمد): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، بيروت، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦.

٤- اليوسفي: المصدر نفسه، ص ١٩٨-٢١١.

سببت الانقسام في الصف العربي الإسلامي وخفض الروح المعنوية لدى الجيش وعامة الشعب وجلبت المغول إلى البلاد، فدمروا القرى والمدن، تبع ذلك إرهاق الخزينة العامة بكثرة الإنفاق سواء على الجند بشراء العتاد والأسلحة، أو بترميم المنشآت التي تعرضن للتخريب على أيدي المغول. وأدت من ناحية أخرى إلى إفشاء معلومات عسكرية لم يعرفها العدو من قبل مما سهل الوضع للغزاة بإعادة النظر في التخطيط للعمليات الحربية القادمة سواء في المنطقة العربية أم خارجها، وهذا ما لوحظ فيما بعد أثناء الاجتياح التيموري سواء للعراق أو لبلاد الشام أو للمناطق المجاورة لبلاد المغول.

ثالثاً: أثر الحملات المغولية على العلاقات الأرمنية المملوكية:

إن فقدان المرتكزات الأساسية لبقاء أية دولة يعني انهيارها وتلاشيها وهذا ما حصل لدولة أرمينية الصغرى في العصر المملوكي.

ولا بد قبل الحديث عن مجريات الأحداث بين المماليك والأرمن والمغول من طرح الأسئلة التقليدية التي تتبادر إلى ذهن كل باحث في مجال التاريخ، وهي: من هم الأرمن الذين ارتبطوا بالمغول والمماليك؟ أين استوطن هؤلاء؟ ولماذا تعاونوا مع المغول ضد مسلمي بلاد الشام؟ وما الروابط التي ربطتهم بالمغول؟

وللجواب عن الأسئلة المتقدمة نتوصل إلى الحقيقة التاريخية التي مفادها أن الأرمن شعب مسيحي أقام على أراضي كيليكية، والتي عرفت باسم أرمينية الصغرى، وهي تختلف عن أرمينية الكبرى التي عرفها الكثير من الجغرافيين وذكروا أنها منطقة يحيط بها من الغرب حدود بلاد الروم وشيء من الجزيرة، ومن الجنوب بعض حدود الجزيرة وحدود العراق، ومن الشرق بلاد الجيل والديلم إلى بحر الخزر، وكانت تحتوي على مدن كثيرة كسيواي، وارزن وخلاط وخرت برت[1].

وكيليكية أرض عربية إسلامية كانت تابعة لبلاد الشام، ونتيجة لتحول الطرق التجارية عن أرمينية الكبرى، إلى جانب ضغط ما نجم عن هجرات التركمان وأنشطة المغول وسواهم هاجر الأرمن وبأعداد كبيرة إلى كيليكية واستقروا في المنطقة الممتدة من الرها شرقاً إلى أذنة غرباً. ونتيجة للأوضاع الشاذة الناجمة عن الحروب الصليبية، واحتلال الصليبيين

١- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي): صورة الأرض، بيروت، دار الحياة، ١٩٧٩م ص ٢٩٤- ابن شيخ الربوة (أبو طالب الأنصاري الدمشقي): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى ص ٨٩-١٩٠ – القلقشندي_أبي العباس أحمد): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٣٩٢ هـ / ١٩١٤م، ج ٤، ص ٣٥٣- ٣٥٦.

لإنطاكية، تمكن الأرمن من تأسيس دولة سميت أرمينية الصغرى، واتخذوا مدينة سيس عاصمة لهم[1]. فهل تحولت كيليكية شعباً ولغة إلى أرض أرمينية؟

لقد بقيت كيليكية أرضاً عربية إسلامية بالرغم من سلخها عن وطنها الأم سورية ويمكن القول إن الحكم السياسي فيها اصبح أرمنياً. وقبل استعراض العلاقات الأرمينية المغولية لا بد من وضع الخطوط العريضة لأوضاع أرمينية الصغرى قبل قدوم المغول.

حكمت أرمينية الصغرى من قبل عدة ملوك كان أقواهم على الإطلاق الملك ليون الجميل (ت ٦١٦ هـ / ١٢١٩م) الذي جعلها على قدم المساواة مع إمارة إنطاكية المسيحية وإمارة حلب الإسلامية، وقد بلغت أرمينية في عهده أوج ازدهارها السياسي والاقتصادي إذ أصبحت تجارياً همزة الوصل بين الشرق والغرب، ساعدها على ذلك خبرات سكانها بالطريق المؤدية إلى العراق وفارس والهند[2].

وبعد وفاة ليون تعرضت أرمينية لعدة اضطرابات نتج عنها تسلم هيثوم بن قسطنطين الحكم بعد زواجه من ابنة ليون، وظل هيثوم يحكم أرمينية حتى سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠م. لم تنعم أرمينية بالاستقرار الأمني بعد أن وجه المغول أنظارهم نحوها، فبعد أن حقق المغول الانتصار على غياث الدين السلجوقي وأخضعوا أرضروم سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢م وجهوا أنظارهم نحو أرمينية فخشي هيثوم مغبة الأمر، ووجد أن مصلحته التحالف مع هؤلاء الغزاة، فقدم خضوعه لهم، فاشترطوا عليه تسليمهم عائلة غياث الدين السلجوقي المؤلفة من والدته وزوجته وابنته اللواتي احتمين به عند غزو المغول لأراضيهم، ولما لم يجد بدا من تنفيذ هذا الأمر عمد إلى تسليمهم، عندئذ تأثر غياث الدين تأثراً كبيراً لعدم مراعاة هيثوم حرمة الضيافة، وقرر مهاجمة أرمينية. استطاع في بداية المعارك التغلب عليهم، لكن المغول سارعوا إلى نجدتهم ووقفوا إلى جانب هيثوم وساعدوه في القتال وطردوا السلاجقة من تلك المناطق[3].

تبلورت العلاقات الأرمينية المغولية بشكل واضح أثناء حملة هولاكو فأثناء هجومه على بلاد الشام وزرعه الخراب والدمار فيها وقف الأرمن والفرنج إلى جانبه لارتباط مصالحهم السياسية والدينية.

١- العابدي: قيام دولة المماليك، ص ٢٢٩.

٢- المدور (مروان): الأرمن عبر التاريخ، بيروت، دار الحياة، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ٢٣٣-٢٣٣- الترك (عثمان): صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م، ص ١٤٩.

٣- عثمان: صفحات، ص ١٥١-١٥٢.

شكل كل من الأرمن والمغول والصليبيين تحالفاً ثلاثياً نجم عنه خطر كبير على بلاد الشام، فقد ربطت بين أطراف هذا التحالف روابط عديدة تمثلت أولاً في مصالحهم المشتركة بالقضاء على دولة المماليك الناشئة والقوية والتي وقفت سداً منيعاً في وجه مطامعهم العدوانية، وثانياً في الروابط الدينية حيث اعتنقت بعض النساء المغوليات المسيحية كزوجة هولاكو. مما كان له أثر في هذا التقارب. غير أن الهدف الأساسي من هذا التحالف كان سياسياً تجارياً أكثر منه دينياً، فقد هدف الفرنج إلى استعادة الأراضي التي استردها الأيوبيون منهم، بينما هدف الأرمن إلى حماية أرمينية من سلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب إلى جانب المحافظة على المكانة التجارية التي حظيت بها أرمينية، لأنها شكلت عقدة مواصلات هامة بعد ظهور المغول، فقد كانت طرق التجارة تعبرها إلى جميع الاتجاهات بين الشرق الأقصى وآسيا الوسطى والأراضي القوقازية وبخاصة عبر الطرق الشمالية، كما أن طريقاً آخر يمر فيها إلى الدول المجاورة، وأضحى ميناء إياس بعد سيطرة المماليك على مرافئ بلاد الشام ملتقى التجار القادمين من البندقية، وجنوى، وطشقند، وروسيا، وبيزنطة. وبالتالي فقد كانت أرمينية ممراً لعبور تجارة الرقيق الأبيض التركي والقوقازي إلى بلاد الشام ومصر أيضاً. وقد ساهم عامل آخر في ازدهار أرمينية التجاري وهو اتصالها بمدينتي البندقية وجنوى فكانت أسواقها تغص ببضائع هاتين المدينتين، وتجلت استفادتها في جباية الرسوم المقررة على هذه البضائع - تجارة الترانزيت - فاكتسبت أرمينية بهذه العوامل أهمية تجارية بحكم موقعها الجغرافي الممتاز، وربما يكون هذا سبباً من الأسباب التي دفعت السلطات المملوكية إلى إرسال الحملات العسكرية ضدها وذلك بسبب تحول طرق التجارة إليها[1].

وباعتبار أن المصالح المشتركة جمعت بين الأطراف المذكورة فيما مضى لذلك اشترك هيثوم ملك الأرمن مع كونت إنطاكية الصليبي بوهنميد السادس في هجوم هولاكو على حلب سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م، فحاز كل منهما على قسم من الغنائم التي حصل عليها المغول عند نهبهم للمدينة، فقد أعطى هولاكو هيثوم جزءاً من الأنفال، وأعاد إليه الأقاليم والقصور التي استولى عليها مسلمو حلب، كما استطاع استرداد ما انتزعه منه سلاجقة آسيا الصغرى من أراضي كيليكية، بينما رد هولاكو إلى بوهنميد ما سبق أن استولى عليه صلاح الدين الأيوبي من حصون كانت تابعة لإنطاكية ومنها اللاذقية[2].

١- الترك : صفحات، ص ١٤٩-١٥١ – المدور: الأرمن، ص ٣٨١-٣٨٢ – الصياد: المغول في التاريخ، ص ١٩٣.

٢- العريني: (السيد الباز): المغول، بيروت، دار النهضة، ١٩٨١، ص ٢٤٥م - ٥٠ الصياد المغول، ص ١٩٧م – الترك: المرجع نفسه، ص ١٥٢- رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م، ج ٣، ص ٥٢٦.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل شارك الأرمن إلى جانب المغول في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م، كما أنهم سهلوا انسحاب المغول وحموهم من التعرض للموت، فانسحب المغول شمالاً باتجاه كيليكية هاربين[١].

ولما لم تجد محاولاتهم الحربية مع المغول في السيطرة على بلاد الشام عسكرياً، لجؤوا إلى تباع سياسة اقتصادية جديدة في حرب المماليك تقتضي بالضغط عليهم عن طريق فرض الحصار ومنع استخراج الأخشاب والحديد من الأناضول وتصديرها إلى مصر لبناء السفن[٢].

أمام هذه القرائن والمعطيات الجديدة رسم السلطان المملوكي الظاهر بيبرس سياسته الحربية التي تمكن دولته من الوقوف في وجه الأرمن وأعوانهم المغول، وقرر معاقبة أرمينية وإنطاكية عسكرياً لمساعدتهما العدو المغولي ضد المسلمين، فأرسل فرقة من جيشه سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤م هاجمت أرمينية واستطاعت قتل الكثير من الأرمن، فسارع هؤلاء واستنجدوا بالمغول فأنجدوهم بقوة بلغت سبعمائة فارس كانت موجودة في بلاد الروم، واستطاعت هذه القوات الضغط على القوة الإسلامية التي غادرت المنطقة، ثم هاجم هؤلاء حدود بلاد الشام الشمالية، وعندما وصلوا إلى حارم قفلوا راجعين بسبب الظروف المناخية الصعبة بعد أن هلك منهم الكثير.

ضايق هذا الأمر ملكهم هيثوم فأراد الانتقام، وجرت معركة بين الطرفين في إنطاكية أسفرت عن انتصار المسلمين على الأرمن[٣].

بعدها لم يأمن السلاطين المماليك جانب الأرمن فاستغلوا فرصة غياب هيثوم الأول في تبريز وأرسلوا حملة سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥م بقيادة المنصور الثاني الذي هاجم المصيصة وأذنة وطرسوس، والمنصور الثاني صاحب حماة الذي استولى على سيس عاصمة دولة أرمينية وخربها ودمر كنيستها ومقابر ملوك أرمينية السابقين، إضافة إلى الاستيلاء على قلعة بغراس، واستطاع جيش التحالف الإسلامي هزيمة الأرمن وحلفائهم الصليبيين والمغول، وأسفرت المعارك عن أسر ليفون بن هيثوم، وقتل ابن ثان له. ثم غادرت جيوش التحالف الإسلامي البلاد مصطحبة

١- الصياد: المغول، ص ٢٠٥.

٢- سعد (فهمي عبد الرزاق)؛ العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بيروت، الأهلية، ١٩٨٣، ص ١٥٧-١٥٨ – العريني: المغول، ص ٢٨٣.

٣- ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٩١-١٩٦ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥١٠-٥١٥ – العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٤- زقلمة (أنور)؛ المماليك في مصر، القاهرة مطبعة المجلة الجديدة، ليس له تاريخ طبعة، ص ٦٢.

أربعين ألف أسير، ومن الغنائم ما لا يعد ولا يحصى حتى بيع رأس البقر بدرهمين[1].

بعد انتهاء المعارك العسكرية عاد هيثوم إلى بلاده فوجد شعبه قد تشتت وأولاده قد أسروا فحاول استرداد ابنه السير ليفون (ليو الثالث) من السلطان المملوكي، لكن الظاهر بيبرس رفض إلا بعد تخلي الأرمن عن بعض القلاع والمراكز الاستراتيجية التي تتحكم في طريق المواصلات بين أرمينية والجزيرة حيث يقيم العدو المغولي، وهذه القلاع بهسنا، ودربساك، ومرزبان، ورعبان، إضافة لتسليم سنقر الأشقر الذي وقع أسيراً في أيدي المغول أثناء هجوم هولاكو على حلب، فوافق هيثوم على هذه الاتفاقية إلى جانب عقد اتفاقية صلح، وكان نقض شروط هذه الاتفاقية من قبل الأرمن فيما بعد سبباً في استمرار الحملات العسكرية المملوكية على أرمينية الصغرى[2]. وقد نظم ابن عبد الظاهر قصيدة في هذه الهدنة:

ما هادن الأرمن سلطاننا ... إلا لأمر منه إذلالهم

حتى تكثر أموالهم ... وللظبي تكثر أطفالهم[3]

بعد هذه الاتفاقية قام الظاهر بيبرس بالاستيلاء على إنطاكية، فانقطعت بذلك صلة الأرمن مع الصليبيين في كل من طرابلس وعكا، وفقد هؤلاء الأمل بإمكان قيام تحالف مغولي صليبي أرمني مشترك ضد المسلمين المماليك[4].

وهكذا فإن ما آلت إليه الظروف الحربية في المنطقة دفعت الأرمن إلى التشبث بعلاقاتهم مع المغول بوصفهم القوة الوحيدة القادرة على حمايتهم من المماليك، فقبل أن يتنازل هيثوم لابنه ليفون عن العرش اصطحبه سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨م إلى بلاط المغول لإطلاع السلطان المغولي على مدى قدرة وصلاحية ولده لولاية العرش[5]. وقد أيقن ليفون بعد استلامه الحكم

١- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٦٩-٢٧١ – النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٢٩٠-٢٩١ – الذهبي: العبر في خبر من غبر، الكويت، مطبعة الحكومة، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦م، ج ٥، ص ٣٠١- ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣١٢-٣١٣ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٥١-٥٥٢ – العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٤٢٣ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ١٤٠ – ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٣٢٥ – زقلمة: المماليك، ص ٦٢ – سبانو: مملكة حماة، ص ٨٧ – العبادي: المرجع نفسه، ص ٢٣٠-٢٣١ – عدوان: المرجع نفسه، ص ٩٦ – رنسيمان: المرجع نفسه، ج ٣، ص ٥٥٣.

٢- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٧٢- النويري: نهاية، ج ٣٠، ص ١٥٣-١٥٤ - ابن كثير: البداية: ج ١٣، ص ٢٤٧ – المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٨- الترك: صفحات، ص١٥٣- فهمي: المرجع نفسه، ص١٥٨ - عدوان: المرجع نفسه، ص٩٦

٣- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٣٨.

٤- الغامدي: المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

٥- الغامدي: المرجع نفسه، ص ٢٠٤.

بأن بلاده خاضعة لا محالة لسيطرة المماليك، فبدأ يوجه النداءات للغرب الأوروبي والمغول لمواجهة الخطر الإسلامي بعقد التحالفات والاتفاقيات. ولم تلق هذه النداءات استجابة إلا من جانب المغول حيث أبرم اتفاقاً سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣م مع أبغا ايل خان المغول.

ولما علمت السلطات المملوكية بهذا الاتفاق لم ترد عليه مباشرة بسبب الأوضاع الداخلية المضطربة في أرمينية، ذلك أن الكثير من النبلاء الأرمن كانوا يودون الخضوع لسلطات بلاد الشام بينما كان ملكهم يعارضهم في ذلك.

اعتبر هذا العمل نقضاً للعهد المبرم بين المماليك والأرمن، واستوجب ذلك مهاجمة أرمينية من قبل الظاهر بيبرس الذي خرج بنفسه على رأس حملة عسكرية إلى دمشق سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤م ثم توجه إلى حماة، وهنا عهد بقيادة الحملة إلى المنصور سيف الدين قلاوون الألفي، وبيليك الخازندار، وقد اصطحبت الحملة معها المراكب المجهزة مسبقاً محملة على ظهور البغال ليتم جمعها في أرمينية لاستخدامها في عبور الأنهار. وعبرت القوات الإسلامية إلى أرمينية فخربت المدن وسلبتها، وأحرقت المصيصة من الجانبين وسلبت مدينة سيس، وهدمت القصر الملكي فيها، وكنيسة القديسة صوفيا، ونهبت مدينتي إيا وطرسوس.

نجم عن الحملة نتائج كثيرة أهمها هجرة الكثير من الأرمن إلى أماكن متفرقة، وقتل بعض السكان، فضلاً عمن لقي حتفه غريقاً أو حريقاً، عدا عن الأسرى الذين وقعوا بقبضة المسلمين، فقد قيل إنه سيق بعضهم إلى مصر والباقي ربما وزعوا في أماكن متفرقة[1].

لم يسارع المغول لمساعدة حلفائهم الأرمن بسبب الصراعات الداخلية بين مغول الشمال ومغول فارس، فضلاً عن خوفهم من الهزيمة أمام المماليك الذين لم يهملوا أمرهم حيث أرسل الظاهر بيبرس كلاً من أمير العرب عيسى بن مهنا، وحسام الدين العينتابي إلى البيرة لمناوشة المغول وإشغالهم عن تقديم أية مساعدة لأرمينية الصغرى، كما وقف الصليبيون موقف الحياد بسبب حالة الضعف والتفكك التي سيطرت على معظم مناطق وجودهم بسبب الضربات الموجعة التي سددها لهم المماليك، وانقطاع المساعدات عنهم من الغرب الأوروبي[2].

١- ابن شداد (عز الدين محمد): تاريخ الملك الظاهر، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٠٦-١٠٧ – ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٣١-٤٣٥ – المنصوري: التحفة، ص ٨٠-٨١ – اليونيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٨ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٣٣٧-٣٥٠- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٦٨- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦١٧- العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٦-١٥٧ – ابن تغري بردي: المنهل، ج ٣، ص ٤٥٩ – عدوان: المرجع نفسه، ص ٩٦- الترك: المرجع نفسه، ص ١٥٤ – زقلمة: المرجع نفسه، ص ٦٣- الغامدي: المرجع نفسه، ص ٢٠٥-٢٠٦.

٢- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٣٣- الغامدي: المرجع نفسه، ص ٢٠٦.

شجعت الأحداث التي حدثت بالدولة المملوكية إثر وفاة الظاهر بيبرس، ونشوب الخلافات بين الأمراء والمماليك على السلطة في مصر، وتمرد سنقر الأشقر في الشام وإعلان نفسه سلطاناً، شجعت كلاً من المغول والأرمن على الهجوم على بلاد الشام والنيل من المماليك، فزحفوا بجيش قارب عدده أربعين ألف جندي واصطدموا مع جيش العرب المسلمين في موقعة حمص سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م، فتمخضت الموقعة عن هزيمة الحلف الأرمني المغولي[١]، فقد هرب المغول عبر الفرات بعد أن قتل الكثير منهم، بينما انسحب ملك الأرمن ليفون إلى بلاده، فاعترضه التركمان والأكراد مع جيشه في الطريق وقتلوهم عن آخرهم، ولم ينج من القتل والأسر إلا أقل من عشرين شخصاً[٢].

وانتقاماً لاشتراك الأرمن في معركة حمص رد المسلمون عليهم بهجوم سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣م ترأسه نائب حلب فقتلوا كثيراً من سكان إياس، وأحرقوا برجاً من أبراج الثينات، إضافة إلى أحد أسوارها، فطلب الأرمن الصلح وتقرر أن يدفعوا سبعة عشر ألف درهم، لكن هذا الصلح نقض لأن سكان إحدى القلاع الأرمينية والمعروفة بقلعة التيني[٣] قطعوا الطرق على القوافل التجارية المتوجهة إلى بلاد الشام إلى جانب استنجادهم بالمغول الذين سارعوا واصطدموا مع المسلمين الذين أحرقوا القلعة، ولم يتمكن الأرمن بعد هذا التاريخ من الإقامة بها[٤].

تمكنت السلطات المملوكية أثر هذه المعركة من تجميد قوة أرمينية ومنعها من الاشتراك مع المغول في معارك حربية ضد المسلمين في بلاد الشام، وإبعادها مؤقتاً عن مسرح القتال، لذلك بادرت إلى عقد هدنة سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م عند حصار المماليك لطرابلس بقيادة المنصور قلاوون باعتباره سلطان بلاد الشام مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر توجب عليهم بموجبها دفع جزية تقدر بمليون درهم، وفك أسر جميع التجار المعتقلين.

وقد أقدم الأرمن على هذه الخطوة بعد هزيمة المغول في موقعة حمص هزيمة منكرة، ويقينهم بأن المغول أصبحوا عاجزين عن تقديم المعونة لهم ومساعدتهم عند حصول أي هجوم

١- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤-١٥ – ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٩٥-٢٩٦ – الدور: المرجع نفسه، ص ٢٣٧- شبولر (برتولد): العالم الإسلامي في العصر المغولي، دمشق، دار حسان للطباعة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م، ص ١٥٤- الترك: المرجع نفسه، ص ١٥٤- ونسيمان: المرجع نفسه، ج ٣، ص ٦٦١-٦٦٢.

٢- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٦٨٩.

٣- قلعة التيني: لم أجد لها تعريفاً في المعاجم لكنني عثرت على تعريف لمدين تينات وأظن أن القلعة بها، فالتينات فرضة على بحر الشام قرب المصيصة، تجهز فيها المراكب بالخشب على الديار المصرية، ينظر الحموي: معجم البلدان ج ٢، ص٦٨

٤- ابن عبد الظاهر: تشريف، ص ٣٠-٣١-٦٧ – النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ٣٨-٣٩ – العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٩.

عليهم، إضافة إلى عدم تمكن الصليبيين من تقديم المساعدة لهم بسبب حروبهم مع المماليك. وهذه مقتطفات من نص المعاهدة يقول فيها ليفون بن هيثوم:

«إنني من وقتي هذا وساعتي هذه قد أخلصت نيتي، واصطفيت طويتي في الطاعة، وفي الوفاء لمولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين.. ولوده المولى السلطان الصالح ... وولده الأشرف صلاح الدنيا والدين خليل ناصر المؤمنين».

وقد تعهد صاحب أرمينية أن يقدم لصاحب مصر «وعلى أن الملك ليو ابن الملك هيثوم يقوم لمولانا السلطان الملك المنصور ولولده وولي عهده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا وولده السلطان الملك الأشرف في كل سنة من استقبال تاريخ هذه الهدنة وإلى انقضاء مدتها على حكم القطيعة المستقرة عن نفسه وعن رعيته وعن بلاده بما يأتي ذكره ونقد سنة معجلة، وهو من الفضة الطلغم[1] التكفورية خمسمائة ألف درهم وزناً نصفها: مائتا درهم، وخمسون ألف درهم. ومن الخيل الجياد والبغال الجياد خمسون رأساً. ومن التطابيق الحديد الجياد عشرة آلاف تطبيقة بمساميرها محمولة إلى أي جهة رسم له بحملها إليها من البلاد السلطانية. وليستقر حمل ذلك في كل سنة من مملكته، وتكون السنة الأولى معجلة، ويستقر حمل هذه الجملة المعنية في كل سنة إلى انقضاء هذه الهدنة المباركة»[2].

رضخ الأرمن للأمر الواقع ونفذوا بنود الاتفاقية، فقد كانوا يؤدون الجزية للسلطات المملوكية باستمرار عدا بعض السنوات التي أعفاهم منها السلاطين بسبب عوامل طبيعية أو سياسية. إلا أن التوتر ساد العلاقات من جديد، فتوجه الجيش العربي إسلامي سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩١م إلى قلعة الروم مقر الجاثليق[3] الأرمن في نواحي حلب للاستيلاء عليها، فحاصرتها العساكر الإسلامية مدة اختلفت المصادر في تقديرها، فبعضها أورد أن الحصار استمر ثلاثة وثلاثين يوماً، وأخرى ثلاثة أشهر، وكان يتولى الدفاع عنها ريمون خال الملك هيثوم بن ليون، وأسفر الحصار عن سقوط المدينة بيد المسلمين، وأسر عدد كبير من سكانها بينهم البطريرك استبانوس[4]. تفجر الصراع من جديد بين المماليك والأرمن بعد اعتداء الأرمن سنة

١- الطلغم التكفورية: أي ملكية ضرب من النقود. ينظر ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، حاشية المحقق، رقم (١) ص ٩٩.

٢- ابن عبد الظاهر: تشريف، ص ٩٤- عدوان: المماليك وعلاقاتهم الخارجية، ص ٩٩.

٣- الجاثليق: أحد الرؤساء الدينيين للنصارى، كان ينتخب من بين عدة مرشحين ويشارك في الانتخاب رؤساء الوحدات الدينية في الأقاليم انظر عمرو بن متى: أخبار قطاركة كرسي المشرق، روما، ١٨٩٦، ص ٧٤-٧٥.

٤- اليافعي (عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، بيروت، مؤسسة الأعلمي، الطبعة الثانية، ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠م، ج ٤، ص ٢١٨- ابن الجزري (محمد بن إبراهيم

٦٩٢ هـ / ١٢٩٢م على قافلة من التجار المسلمين فقررت السلطات المملوكية إرسال قوة عسكرية لقتالهم، عند سماعهم بهذه الأنباء سارعوا إلى السلطان وطلبوا الأمان فمنحهم إياه مقابل تسليمهم قلعة تل حمدون وبهسنا[1].

عاد الهدوء يسود أرمينية بعد الأمان الممنوح لها، فعمل ملكها جاهداً إلى تقوية وضع دولته بالتحالف مع أصدقائه المغول خاصة أنه تولى العرش المغولي شخصية سياسية وعسكرية عبقرية وهو غازان، فتوصل معه إلى توقيع اتفاقية تعهد غازان بموجبها السماح للنصارى بممارسة شعائرهم الدينية، إضافة إلى إشادة الكنائس في مدنه، والتعاون بين البلدين في مختلف المجالات. وهذه الاتفاقية تناقض ما جاء به المؤرخون عن إسلام غازان من جهة، وتؤكد أن إسلامه كان مظهراً دعائياً اقتضته الظروف السياسية الداخلية والخارجية المسيطرة على الساحة الدولية، ومن جهة أخرى يمكن اعتبار هذه الاتفاقية حنكة سياسية وبراعة دبلوماسية أقدم عليها غازان لكسب ود وعطف المسيحيين الأرمن والأوربيين كافة، وهذا ما ظهر من خلال اتصالاته مع ملوك أوروبا لمساعدته عسكرياً ضد المماليك، لكنه اخفق بكسب تأييد أوروبا لخططه ونجح بالنسبة للأرمن.

والجدير بالذكر أن الأرمن حافظوا على صداقة المغول رغم فوارق الدين، لكن هذه الصداقة جلبت لهم الكثير من المتاعب، فقد انقلبت عليهم من نعمة إلى نقمة، إذا ذهبوا ضحيتها بسبب غزوات المماليك المتكررة.

على كل حال فقد كان لزاماً على الأرمن تقديم المساعدة للمغول عسكرياً عند هجومهم على بلاد الشام وهذا ما حصل سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩م، حيث اشترك الأرمن إلى جانب جحافل المغول في معركة حمص، ثم رافقوا الجيش المغولي عند دخوله لدمشق، وانتقم هؤلاء من المسلمين أبشع انتقام فقد خربوا الجوامع وخاصة جامع التوبة في العقيبة، وذلك رداً على تخريب المسلمين لكنائسهم وقصورهم، كما استغلوا الظروف الحربية المضطربة واستردوا

بن أبي بكر): المختار من تاريخ ابن الجزري المسمى حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر من أبنائه، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ /١٩٨٨، ص ٣٥٢- ابن حبيب: تذكرة، ج ١، ص ١٤٩ – ابن تغري بردي: المنهل، ج٥، ص ٢٧٢-٢٧٤ - ابن إياس: المصدر نفسه، ج١، ق١، ص٣٧٠- الترك: المرجع نفسه، ص ١٥٥-١٥٦- النمدور: المرجع نفسه ص ٢٣٨.

١- ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٣٣٢، ابن حبيب: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٠ – المقريزي: المقفى، ج ١٣، ص ٧٩٨- العيني: عقد، ج ٣، ص ١٥١- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٣٧١.

عدة قلاع استراتيجية هامة كان المماليك قد انتزعوها منهم وهي تل حمدون[1]، حموص،[2] كويره، سرفندكار[3]، النقير[4].

شجعت هذه الأعمال ازدياد حدة الصراع بين السلطات في بلاد الشام والأرمن، لذا عمدت هذه السلطات إلى الانتقام منهم بعد استقرار الأمن بتخريب المدن الأرمينية، فقد أرسلت عدة حملات ما بين سنتي (٧٠١-٧٠٣ هـ / ١٣٠١م - ١٣٠٣ م) أغارت على سيس وما جاورها إلى الدربند، وحاصرت تل حمدون وفتحته بعد أن أعطت الأمان لأهله. ولم يستطع المغول مساعدة الأرمن بسبب الهزائم المتلاحقة التي تعرضت لها جيوشهم في بلاد الشام سنة ٧٠٠ هـ - ٧٠٢ هـ / ١٣٠٠-١٣٠٢م في وقعة شقحب، ولم يسنَ السلاطين عقوبة ملك الأرمن الذي اشترك إلى جانب المغول في هذه الموقعة فاضطر مرغماً للجوء إلى الموصل.

ونتج عن هذه الحملات إعادة الجزية المقررة على الأرمن[5].

ارتمى ملوك الأرمن بين أحضان السلطات المملوكية ليقينهم بعدم قدرتهم على مواجهة المماليك عسكرياً، وتعهدوا بدفع الجزية، واستعدادهم للقصاص إذا ما تخلفوا عن أدائها ونتيجة لنقض الشروط المذكورة أغارت القوات العربية الإسلامية على أراضي أرمينية سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥م، كما أغارت مرة أخرى سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤م عندما امتنعت عن الدفع، ولاقت المصير نفسه الذي لاقته فيما مضى[6].

بعد ذلك توقفت العمليات العسكرية ضد أرمينية، ففي سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م اجتاحت القوات المملوكية سيس وطرسوس فيئس ملك الأرمن من مواجهة المماليك.

وضعت السلطات المملوكية في حسبانها إعادة الانتعاش التجاري لبلاد الشام كالسابق لأن

١- تل حمدون: قلعة ببلاد الأرمن كانت حصينة قبل تخريبها من قبل المسلمين، وبينها وبين إياس مرحلة، وبينها وبين سيس مرحلتين: انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٦.

٢- حميص: قلعة خراب صغيرة بالقرب من نهر جيحان، انظر القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٧.

٣- سرفندكار: قلعة من بلاد الأرمن، وهي بالقرب من جيحان، انظر القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٤.

٤- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٧ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٥.

- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٠٢.

- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٨- الدور: المرجع نفسه، ص ٢٣٩.

٥- ابن أيبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ١١٠-١١٢ – ابن الوردي: تتمة، ج ٢، ص ٣٥٧ – ابن حبيب: المصدر نفسه، ج ١، ص٢٥٧ – الترك: صفحات، ص ١٥٨.

٦- ابن أيبك الدواداري: الدر، ص ١٣١-١٣٢ – الذهبي الحافظ: ذيول العبر، تحقيقي محمد رشاد عبد المطلب، الكويت، وزارة الإعلام، طبعة ثانية مصورة، ١٩٦٨م، ص ٢٩-٧٦ – العيني : المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٨١.

التجار المسلمين كانوا قد فقدوا قسماً من أموالهم نتيجة تحول طرق التجارة عنها إلى أرمينية الصغرى، فوجهت حملة ضد مدينة إياس سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢م استطاعت نهب المدينة وإحراقها وهرب سكانها بأولادهم وبما استطاعوا حمله من أموالهم، وعاد الجيش العربي الإسلامي محملاً بالغنائم[١].

في خضم تلك الأوضاع المضطربة تدخل البابا لمصلحة الملك ليفون، فأوصى ملك فرنسا فيليب الخامس بالعطف على أرمينية الصغرى، كما أوصى به خان المغول الذي لبى رغبته وأنجده بقوة حربية قوامها عشرون ألف محارب من رجاله. أمام هذه الأوضاع اضطر الناصر محمد إلى توقيع معاهدة صلح مع ملك الأرمن يدفع بموجبها سنوياً خمسين ألف فلورين عدا نصف ما يتحصل من الضرائب الجمركية وما تدفعه مدينة إياس من التجارة البحرية، ونصف ما يتحصل من ثمن القمح مقابل تعهد الناصر بإعادة بناء إياس على نفقته[٢].

امتنعت أرمينية الصغرى سنة ٧٣٥-٧٤٦ هـ / ١٣٣٤-١٣٣٥م عن دفع الجزية المفروضة عليها رغم هذه الاتفاقية المعقودة، فنقضت الصلح، عندئذ أرسلت السلطات المملوكية حملة بقيادة نائب حلب فسار إلى عاصمتها وقد بثت عساكره الرعب والفزع والقتل فيها، واصطحب منها ثلاثمائة أسير، فحزن أهل إياس لمصير أخوانهم وما حل بهم، لذلك انتقموا من مجموعة من التجار المسلمين الموجودين لديهم في خان، حيث أحرقوهم، فهلك منهم نحو ألفي نفر، ولم ينج منهم إلا القليل[٣].

وبينما كان الأرمن يعيدون الاستقرار الأمني لمدنهم توجهت إليهم سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦م قوة إسلامية كبيرة اجتمعت من كافة مدن الشام ومصر، فحاصرت هذه القوة مدينة إياس ثلاثة أيام، ولما علم سكانها ما سيلحق بهم من الهزيمة طلبوا الأمان، فاستجابت السلطات المملوكية لذلك شرط أن يخلوا القلاع الواقعة شرقي نهر جان، فاستجابوا وطلبوا مهلة يأخذون بموجبها مالهم فيها ويسلموها، فتسلم المسلمون إياس وسرفندكار والهارونية ونجيمة

١- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٢٦٤ – الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢٢٩.- ابن الوردي: تتمة، ج ٢، ص ٣٨٩ – اليوسفي: المصدر نفسه، ص ٣٩٥-٤٠٩. - ابن حبيب: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٤ – ابن تغري بردي: المنهل، ج ٣، ص ٥٤.

٢- عدوان: المماليك، ص ١٦٦ - الترك: صفحات، ص ١٦٠.

٣- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٢٦٥ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٣٩ – ابن حبيب: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٩ – ابن تغري بردي: المنهل، ج ٣، ص ٥٥ – ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٤٧٠-٤٧١ – ابن الطباخ: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٤ – عدوان: المماليك، ص ١٦٦.

التي خربوها، ولم يبقوا إلا ميناء إياس لأغراض تجارية[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن وهو لماذا كل هذه الحملات ضد أرمينية الصغرى؟ هل لمجرد انضمامها إلى جانب المغول أثناء هجومهم على مناطق الشام؟ أم هناك أهداف أخرى ارادت السلطات تحقيقها عن طريق هذه الحملات؟

من المرجح أن السلطات المملوكية أرسلت هذه الحملات إلى أرمينية لتحقيق عدة أهداف:

الهدف الأول:

اقتصادي يتشعب إلى عدة جوانب، الجانب الأول: إحراز الغنائم التي تشكل ركيزة أساسية في سد نفقات ومصروفات الجيش من الجند والأمراء الذين يتقاضون رواتب لا تكفي مصروفاتهم. كما سمحت السلطات المملوكية للأمراء أحياناً بالهجوم على أرمينية لإحراز الغنائم وذلك لإرضائهم وضمان وقوفهم لجانبها أثناء الغزو المغولي للمنطقة. مثال ذلك ما قام به تنكز (نائب دمشق) الذي أقدم منذ توليه السلطة على إعادة الاستقرار السياسي والاجتماعي والأمني وإقامة المدارس والجوامع والخانقاوات، وقد هاجم ملطية سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٢م وفتحها بالأمان وخربها، كما فتح قلعة درندة عنوة وقتل الأرمن الموجودين فيها وخربها. فهدف تنكز من وراء الحملة إحراز الغنائم لإنفاقها على مشاريع مدينة دمشق[2].

أما الجانب الثاني فهو جانب تجاري حيث تراجعت التجارة كثيراً بسبب ظهور المغول، وتسهيل السلطات المملوكية عبور تجارة الرقيق الأبيض عبر هذه المناطق إلى بلاد الشام ومصر، ولكي تستعيد موانئ الشام أهميتها أرسلت السلطات المملوكية الحملات المتكررة على إياس سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢م وسنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦م ورغم تخريبها لإياس إلا أنها أبقت على الميناء لأغراض تجارية.

الهدف الثاني:

سياسي يتشعب إلى عدة أمور:

أولاً: معاقبة الأرمن على وقوفهم إلى جانب المغول وتطاولهم على المسلمين في بعض المدن أثناء

١- الشجاعي: (شمس الدين): تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٩٨/١٩٧٨م، ص ٤-٨ – الذهبي: ذيول العبر، ص ١٩٤- ابن حبيب: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٨-٢٧٩- ابن الطباخ: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٦.

٢- ابن أيبك الدواداري: الدر، ص ٢٨٤-٢٨٥ – الشجاعي: الملك الناصر، ص ٣٧٥- المقريزي: المقفى، ج ٢، ص ٦٠٩- الحسيني: ذيول العبر، ص ٢١٩ – ابن حبيب: تذكرة، ج ٢، ص ٦٥-٦٨ – ابن إياس: بدائع، ج ١، ق ١، ص ٤٤٦.

الهجوم المغولي على بلاد الشام، فضلاً عن رفع الروح المعنوية للجيش وإرضاء الأمراء بقيادتهم للحملات العسكرية، فقد سمحت السلطات المملوكية لقرطاي نائب حلب بالهجوم على أرمينية الصغرى سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م بسبب استيلاء الأرمن على قلاع هامة وإستراتيجية منها إياس، كوره، سرفندكار. وقد انضم لحملته قرابة ألف فارس من دمشق، وأمراء الطبلخاناه من حماة، إضافة إلى عسكر حلب بصحبة نائبها الطنبغا، وقد حاصرت هذه الجيوش قلعة سيس وخربوا المنطقة وأتلفوا الزروع واستاقوا المواشي، وعادوا محملين بالغنائم[1].

ثانياً: محاولة السلطات المملوكية إشغال عامة الشعب عن الإطلاع على مظاهر الفساد في النظم الإدارية والعسكرية.

وربما هدف السلاطين إلى إعادة كيليكية إلى البوتقة الإسلامية بعد سلخها فترة طويلة عن وطنها الأم سورية وبالتالي ظهورهم كمدافع وحامي لحقوق العرب المسلمين.

بعد الإخفاق الذريع الذي مني به الأرمن في مواجهة المسلمين وجهوا أنظارهم إلى الغرب الأوروبي علهم يلقون المساعدة والتأييد، فاستجاب بعض ملوك أوروبا لعقد اتفاقات معهم، فتعهدت كل من فرنسا والبابا بمساعدتهم ضد المسلمين. لكن هذا لم يرق للعرب المسلمين الذين أدركوا بأن هذه الاتفاقيات سوف تخل بالوضع الأمني للمنطقة وتغير موازين القوى، لا سيما وأن الأوروبيين ما فتئوا يفكرون في استعادة نفوذهم في الشرق، لذلك أرغمت السلطات المملوكية أرمينية على عقد اتفاقية تعهدت بموجبها عدم مساعدة أية دولة أوروبية ضد بلاد الشام ومصر، ومواظبتها على دفع الجزية السنوية، وظلت محافظة على هذا الاتفاق حتى اقتيد ملكها ليو السادس أسيراً إلى القاهرة[2].

ظلت السلطات المملوكية تكيل الهجمات لأرمينية حتى استطاعت تقليم أظافرها والإجهاز عليها وإعادتها إلى نفوذ حكمها سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥م ففي هذا التاريخ توجهت حملة مملوكية مؤلفة من خمسة عشر ألف محارب إلى سيس انضمت إلى القوات المصرية المحاصرة للمدينة، ووجد الملك الأرمني ليفون أن المقاومة ستكون عقيمة، فأخلى المدينة بعد أن أحرقها واعتصم بالقلعة التي حوصرت من قبل جيوش المسلمين، واستمر الحصار حتى استطاع المسلمون دخول القلعة، عندئذ أدرك ليفون خطورة الموقف لا سيما أن المجاعة قد أطلت بشبحها المخيف من

١- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٨- ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٨٤- ابن حبيب: تذكرة، ج ٢، ص ١٠٦-١٠٧ – ابن الطباخ: أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٣٠٣.

٢- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٢٦٥- ابن حبيب: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٥-٢٦٧ – ابن تغري بردي: المنهل، ج ٣، ص ٥٥ – ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٤٧٣- عدوان: المرجع نفسه، ص ١٦٧.

جراء الحصار الطويل، فأرسل يفاوض القواد المسلمين حتى أعطوه الأمان، فاستسلم الملك ليفون للأمر الواقع، واقتيد مع عائلته أسيراً إلى حلب دون أن يمسه أي سوء، ومن حلب رحل إلى مصر، ولم يسمح له بالذهاب إلى أوروبا خوفاً من أين يدعو إلى حملة صليبية جديدة.

وبالرغم من الوساطات التي بذلت من قبل البابا وملك فرنسا وملوك آخرين لإطلاق سراحه، فإنها لم تثمر عن نتيجة حتى وصل أحد الرهبان الفرنسيسكان والمدعو حنا داريل الذي اجتمع بالملك ليفون وعرفه رغبته في الذهاب لأوروبا، فعاد الراهب لأوروبا وجمع له أموالاً افتداه بها، عندئذٍ سمح له بمغادرة مصر، فرحل عنها سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢م بعد سبع سنوات من الأسر. بعد أن شغر عرش أرمينية الصغرى أصبح تعيين النواب من قبل السلاطين، ودليل ذلك أنه في سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢م حضر رسول من سيس يخبر بأن الأرمن فوضوا أمرهم إلى سلطان مصر ليختار النائب عليهم فانتقى برقوق أحد أسرى الأرمن الذين يقطنون منطقة الكوم ظاهر القاهرة فأخذوه وملكوه عليهم[1].

وطبيعي أن ينبثق عن عودة كيليكية إلى بلاد الشام من جديد عدة نتائج أهمها الهجرة إلى الخارج، وقد اتخذت الهجرة طرقاً متعددة، فقد توجه بعضهم إلى مناطق روسية الجنوبية، ويمم بعضهم وجهه شطر الغرب، وتوجه أكثرهم نحو بولونية ويقدر عددهم بنحو أربعين ألفاً. وتضاربت آراء المؤرخين حول بدء الهجرة، فبعضهم ذكر أنه بدأت منذ منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إثر غزوة المغول ثم غزوات المماليك التي اقتادت الألوف من أبنائها أسرى وزعوا على البلاد الشامية، وأماكن أخرى متفرقة لم تأت المصدر على ذكرها، وربما سكن هؤلاء حلب ودمشق، واحتلت حلب المركز الأول بعدد الأرمن تلتها دمشق، بينما ذكر بعضهم الآخر أنه عندما غزا المماليك أرمينية سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦م أمروا بترحيل عدد كبير من الأسرى الموجودين لديهم ولم تذكر المصادر التاريخية عن أوضاع هؤلاء الأسرى، وهل نقلوا إلى بلاد الشام أو مصر، أو أنهم عادوا إلى بلادهم من جراء مفاوضات بين ملكهم والسلطات المملوكية. ولا نستطيع التأكيد كما أكد باحثون آخرون أن الأرمن الموجودين حالياً في سورية ولبنان تعود أصولهم إلى تلك الفترة[2].

ظلت أرمينية تحت نفوذ السلطات المملوكية حتى اجتاحها تيمورلنك سنة ٧٨٩ هـ /

١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ١، ص ٢٣٧ – العسقلاني: أنباء، ج ٢، ص ٩٠- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٧ – الدور: المرجع نفسه، ص ٢٤٧- الترك: صفحات، ص ١٦٧.

٢- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٦٩-٢٧٠ – الترك: المرجع نفسه، ص ٢١٣-٢١٤- الدور: المرجع نفسه، ص ٥١٨-٥١٩-٥٤٨.

١٣٨٧م، فقد تدفقت في ظل هذه الغزوة موجات من قبائل المغول التي زرعت الخراب والدمار، فقد كانت تحرق القرى والمدن وتذبح السكان، وظلت أحوالها مضطربة ومتأرجحة حتى استطاع تيمورلنك الانتصار على العثمانيين سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م وخرب معظم أرمينية فضاعت من أيدي المماليك ووقعت تحت رحمة القبائل التركمانية المعروفة بقبائل الشاة السوداء، والشاة البيضاء قراقونيلو وآق قونيلو[1].

وأخيراً يمكن القول إن الأرمن لم يكونوا على دراية كاملة بالظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بالدول المجاورة، همهم المصالح الذاتية، لذا فقد اعتمدوا على المغول اعتماداً كبيراً وتناسوا أن الدولة المغولية حديثة النشوء، وأن الصراع على السلطة لم يحسم فيها بشكل نهائي، ولو هادنت أرمينية الصغرى العرب ووقفت موقفاً محايداً تجاه الصليبيين والمغول لاستفادت كثيراً ولم تصل إلى هذه النهاية، إلا أن أرمينية راهنت على أمل أن يبقى المغول بالمنطقة فخسرت الرهان، وفقدت كيانها السياسي نتيجة الخطأ في حساباتها السياسية.

رابعاً: تصفية الوجود الصليبي:

كان الشريط الساحلي في بلاد الشام في فترة الغزو المغولي يقع تحت سيطرة الصليبيين الذين تقوقعوا في هذه المنطقة الإستراتيجية الهامة التي تصلهم عبر البحر الأبيض المتوسط بأوروبا حيث يتم تصريف بضائعهم وبالمقابل يتلقون المساعدات المباشرة إذا ما تعرضوا للهجوم من أي طرف. لقد تأرجحت مواقفهم ما بين الحياد وما بين التأييد والترحيب بالغزو المغولي. فقبل موقعة عين جالوت وقف الفرنجة موقف الحياد. تجاه الصراع الإسلامي المغولي حتى أن تأييد بوهيمند السادس أمير إنطاكية للمغول قد ضايق معظمهم وخاصة بارونات عكا الذين ظلوا ينظرون إلى المغول كبرابرة. ومن هذا الموقف هاجم أحد هؤلاء البارونات والمدعو جوليان الصيداوي دورية مغولية فقتل خلال الهجوم ابن أخ كتبغانوين، فسخط المغول جداً بسبب وقوع الحادث وتوجهوا لتخريب صيدا سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م[2].

ولكن لماذا وقف الفرنجة في بلاد الشام موقفاً محايداً من الصراع العربي المغولي، ولماذا وقف البارونات في عكا موقفاً عدائياً منهم؟

إن الموقف المحايد للفرنجة ينطلق من عدة عوامل أهمها انشغال الفرنجة بصراعات داخلية، إلى جانب تدهور وضعهم التجاري، ذلك أن الغزو المغولي أدى إلى عدم سلامة الطرق التجارية

١- ابن خلدون: التعريف، ص ٣٦٥- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٢٧- العسقلاني: أنباء، ج ٥، ص ٥٥-٥٨

٢- اليونيني: ذيل مرآة، ج ١، ص ٣٦٠- الصياد: المرجع نفسه، ص ٢٠١.

التي أصبحت عرضة للغارات، وإلى عدم وصول البضائع التجارية باستمرار إلى المنطقة، إلى جانب تشجيع المغول للتجارة عبر بلادهم وعبر آسيا الصغرى وأرمينية الصغرى مما أدى إلى تأثر الحركة التجارية. كما أن حرصهم على بقاء العلاقات التجارية الطيبة مع مصر والتي كانوا يكسبون من ورائها مكاسب مادية ضخمة دفعتهم لعدم تعكير صفو تلك العلاقات، وقد يكون ما أظهره المغول من عطف على المسيحيين الشرقيين مصدر استيائهم منهم، ذلك أن المغول طلبوا من أمير إنطاكية إعادة البطرك الأرثوذكسي إلى الأمارة بعد أن طرده البطريرك الكاثوليكي، لذلك خاف الفرنجة من الوقوع تحت رحمة الكنائس الشرقية.

ويجدر القول إن موقفهم المحايد من الصراع المغولي الإسلامي هو الذي أبقاهم مدة طويلة في البلاد، لأنهم لو انخرطوا في ذلك الصراع كانوا سيثيرون غضب الباباوات عليهم وسيصبحون إحدى الولايات المغولية[1].

أما موقف بارونات عكا العدائي من المغول فقد كان أما نابعاً من مكر وذكاء لتدمير المماليك من قبل المغول، أو أنهم كانوا يعيشون منطق السياسة المحلية ويدركون مصالحهم وخاصة البيوتات التجارية على أساس السياسة المحلية، ولربما أدركوا أن عدم مجابهة المماليك أفضل من التعاون مع المغول. وقد أبدى هؤلاء حسن نيتهم عندما أرسل المظفر قطز يطلب منهم السماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم، وبشراء ما تحتاجه الجيوش من المؤونة فأبدوا استعدادهم في أول الأمر لمعاونة قطز، لكن مقدم طائفة الرهبان التيتون (أنوسانجرهاوسن) أنذرهم بأن المسلمين سينقلبون ضدهم إذا ما انتصروا على المغول. فطلب منهم قطز أن يقفوا موقف الحياد[2].

أصيب الفرنجة بخيبة أمل كبيرة بعد انتصار المسلمين في عين جالوت وبات لديهم قناعة بأن يومهم آت لا محالة، خاصة أن ظروفهم الداخلية والخارجية مضطربة وسيئة، فالإمدادات البشرية والمادية التي كانت تصلهم من الغرب الأوروبي تضاءلت، كما أن الحماسة الصليبية في الغرب قد انطفأت جذوتها، وهنا بدأ الصليبيون في البحث عن بديل آخر للغرب الأوروبي، فوجدوه في الجانب المغولي، وطمعوا في أحد أمرين إما في الحصول على المعونة منهم أثناء هجوم المسلمين عليهم، أو إشغالهم بصراع مستمر مع المسلمين، لذلك بادر الفرنجة إلى مكاتبة المغول وإيصال أخبار المنطقة لهم، فعندما جرد الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م جيوشه

١- الغامدي: المرجع نفسه، ص ٧٤-٧٥.

٢- أبو شامة: تراجم، ص ٢٠٧- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٤٠٣- الغامدي: المرجع نفسه ص ١٠٨.

لترحيل المغول عن حلب سارع الصليبيون بإخبار المغول بالأمر عندما وصلت الجيوش إلى غزة[1].

ومهما يكن من أمر فإن الظاهر بيبرس رأى أنه لا بد من تطويق الصليبيين وإحكام القبضة عليهم لأنه علم بأن لا قدرة لدولة ناشئة على خوض الحروب على جبهتين متباعدتين، لذا عقد العزم على التحالف وخطب ود أعداء الصليبيين في المنطقة إضافة إلى المغول الذين ربما سيكونون سنداً لهم، فوجد ضالته في بركة خان[2]، زعيم مغول القبجاق الذي اشتهر بعدائه لمغول فارس، وزعيمهم هولاكو، لذلك أوفد بيبرس سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠م إلى بركة بإغرائه بقتال هولاكو[3]، فرد عليه برسالة مضمونها:

«قد علمت محبتي للإسلام، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين، فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من ناحية حتى نصطلحه أو نخرجه من البلاد وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد»[4].

نجحت هذه المراسلات في تحقيق هدف الظاهر بيبرس المنشود وهو إشغال هولاكو عن التحالف مع الصليبيين، فقد هاجمه بركة واشتبك معه في معارك حربية ضارية، كما التمس بركة من بيبرس مراسلة سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس لطلب المساعدة على هولاكو[5].

وكان الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس الثامن هو الحليف الآخر الذي اتفق معه الظاهر بيبرس ضد الصليبيين، وبالمقابل فإن ميخائيل كان حريصاً على محالفة بيبرس لأنه كان يتعرض باستمرار لهجمات بركة خان، وبصداقته مع بيبرس يستطيع إيقاف الهجمات ضده، لذلك عرض عليه مساعدته فأرسل سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م رسالة يقول فيها:

«إنه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة، ساعدت بكل ما تقدر سلطنتي عليه»[6].

ونتيجة لبراعة بيبرس السياسية والحربية فإنه استطاع تطويق الصليبيين أكثر عندما أبرم اتفاقيات مع ملك قشتالة الفونسو العاشر الذي أرسل إلى الظاهر بيبرس هدية ثمينة عبارة عن

١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٣١ – ابن تغري بردي النجوم، ج ٧، ص ١٠٩- الغامدي: المرجع نفسه، ص ١٥٦-١٥٧

٢- بركة خان: ابن عم هولاكو، كان يحب العلماء والصالحين؟ وقد كسر هولاكو، وكان ينصح الملك المظفر ويعظمه، قام بعده في الملك منكوتمر بن طغان بن بابو بن تولي بن جنكيز خان، وتوفي سنة ٦٦٥ هـ . انظر ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٤٩.

٣- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٨٨-٨٩ – المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٥- الرمزي: م. م. تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، المطبعة الكريمية ببلدة رتنورغ، ج ١، ص ٤٣١.

٤- اليونيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٥- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٣٨.

٥- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١٧١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٣٩- الغامدي: المرجع نفسه، ص ١٥٨.

٦- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٨٨.

خيول عربية أصيلة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م، واتفاقية مع ملك صقلية ما نفرد بن فردريك الثاني هو هنشاونن، ومع صاحب مرسيلية[١].

ويجدر بنا طرح تساؤل هام عن سبب حرص أمراء وملوك الغرب على مصادقة بيبرس الذي عرف بعدائه لإخوانهم الصليبيين في بلاد الشام؟.

إن النزاعات الداخلية المتأججة بين ملوك الغرب هي التي دفعتهم للتحالف، فقد أدركوا عجزهم عن تقديم المعونة لصليبيي بلاد الشام، وبالتالي فقد أرادوا حمايتهم من هجوم المماليك عليهم عن طريق خطب ود سلاطينهم، لكن ذلك لم يفدهم في شيء فبعد أن استطاع بيبرس تجميد النشاط المغولي، والنشاط الصليبي بعد حرمانه من مساعدات البيزنطيين والغرب الأوروبي التفت إلى البدء بحروب التحرير والاسترداد لكافة المناطق التي احتلها الصليبيون بالقوة.

وأول عمل قام به بيبرس تأديب أمير إنطاكية بوهيمند السادس لوقوفه بجانب المغول، فأرسل إليه فرقة عسكرية بقيادة الأمير سنقر الأشقر الرومي، والأشرف صاحب حمص، والمنصور صاحب حماة، فهاجموا ميناء إنطاكية وأحرقوا مراكبها وغنموا غنائم كثيرة[٢].

ومن المرجح أن عداء بيبرس للصليبيين يعود إلى الحملة الصليبية التي قام بها القديس لويس على مصر، والتي اشترك فيها بيبرس، وهي التي جعلته يدرك نوايا الصليبيين في فرض سيطرتهم على المراكز الإسلامية الهامة في مصر والشام، الأمر الذي جعله عند ما تولى عرش السلطنة أن يفكر جدياً في استئصال شأفتهم، لذلك لم يتردد لحظة واحدة في تنفيذ مخططه الرامي إلى تحرير المناطق جميعاً من سيطرتهم.

انطلقت جيوش بيبرس من سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م في تحرير المدن والمواقع الواقعة تحت سيطرتهم، خاصة عكا، الناصرة، قيسارية، عثليت، أرسوف، صور، حيفا، صيدا، القلاع التي تحمي طرابلس مثل عرقا، حلبا، القليعات، صفد، يافا، إنطاكية[٣].

١- ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص ٢٠١- الغامدي: المرجع نفسه، ص ١٦٠-١٦١.

٢- ابن عبد الظاهر: المصدر نفسه، ص ١٣٢-١٣٣ – أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٤ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٧ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٧٢.

٣- للمزيد من التفاصيل حول حروب بيبرس ينظر – ابن عبد الظاهر: الروض ١٥١-١٥٢-١٥٨-١٦٢-٢٠٠-٢٣٠-٢٣١-٢٣٤-٢٣٥-٢٤٤-٢٤٥-٢٥١- المنصوري: التحفة، ص ٥٣-٥٤- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٢٩٨-٢٩٩- ج ٣١، ص ٣٥٥ – أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٧- ج ٤، ص ٢-٣- الذهبي: دول: ج ٢، ص ٨٦- ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣١١- اليافعي: مراة الجنان، ج ٤، ص ٦٦١ – ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم): رحلة ابن بطوطة، بيروت، دار صادر،

وقد برهن بيبرس خلال حروبه على عبقرية عسكرية متميزة جعلت خصومه الصليبيين يرهبون جانبه، وتتناسب مع محصلات حروب التحرير. وما يدل على حنكة بيبرس ومقدرته السياسية أنه لم يكن ينازع قوى الصليبيين جميعها في المنطقة وإنما كان يحارب إحدى هذه القوى ويهادن أخرى وذلك لكي لا تقف جميعها ضده وتشكل عليه عبئاً عسكرياً.

لا شك أن ما أنجزه بيبرس عسكرياً كان عظيماً وكبيراً وهو يساوي ما أنجزه من قبله صلاح الدين ونور الدين الأيوبي، وعظمته تنبع من شخصيته المتزنة ومخططه الواضح، فقد عرف إمكانات المسلمين وقدراتهم العسكرية والقتالية وعلى أساسها رسم سياسته الواضحة، فقد أطلع على أخطاء الماضي واقتبس منها دروس المستقبل، فطموحه وإصراره هو الذي دفع إلى تحقيق هذه الانتصارات العظيمة والتي كانت اللبنة الأولى في طرد الصليبيين من المنطقة.

ويمكن التساؤل هنا هل كانت حروب التحرير من أجل طرد الصليبيين فقط رغم أنهم وقفوا موقف الحياد، أو كان هناك أسباب أخرى لذلك؟

أن الدوافع الحقيقية وراء هذه الحروب كانت تجارية، فالصليبيون كانوا يمتلكون المراكز التجارية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، وهذه المراكز أمنت لهم الاتصال مع إخوانهم في أوروبا لتصريف منتجاتهم، ولجلب البضائع أيضاً إلى مراكز تواجدهم، كما أن المغول سيطروا على تجارة المشرق وحولوها إلى بلادهم ولذلك لم يجد المماليك بداً من استعادة المناطق الواقعة تحت سيطرة الصليبيين حتى يسيطروا على المراكز التجارية.

تابع قلاوون وأبناؤه تصفية الصليبيين نهائياً من البلاد، فحرص المنصور قلاوون منذ بداية حكمه أن يسير على الخط نفسه الذي سار عليه بيبرس في تطويق بقايا الصليبيين عن طريق تقوية أواصر الصداقة مع مغول القبجاق والدولة البيزنطية والغرب الأوروبي. فقد أرسل إلى مغول القفجاق بأنه باق على الود والصداقة، وتعاهد الطرفان على الاستمرار في عداء مغول فارس، كما صادق الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس وولده اندرونيكس الثاني

١٣٨٤ هـ /١٩٦٤م، ص ٧٤- ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٤٤-٢٤٥ – ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤، ص ٨٣٣-٨٣٧- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٥٧-٤٨٣-٤٨٨-٤٨٩-٤٩٠-٥١٥-٥٢٧-٥٤٥-٥٤٧-٥٥٧- العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٣٥٦-٣٩٦-٣٩٧- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ١٣٨-١٣٩-١٤٢- المنهل، ج ٣، ص ٤٥٤- ابن الشحنة (أبي الفضل محمد): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، سورية، دار الكتاب العربي، ١٤٠٤ هـ /١٩٨٤م ص ٢٢٠- العلبي: الأنس، ج ٢، ص ٨٦ – رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٥٤٦-٥٥٠-٥٥١-٥٦١-٥٦٦- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٤٦-٥٤٧- سالم (عبد العزيز): طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية، مطابع رمسيس، ١٩٦٧م، ص ٢٦٦-١٧٣-١٧٥- الطراونة: صفد، ص ٤٨-٥١-٥٤-٥٥- الغامدي: المرجع نفسه، ص ١٦٦-١٧٥.

(٦٨١ هـ ٧٢٩/ ١٢٨١-١٣٢٨م) ولإحكام الطوق بقوة على الصليبيين أقام علاقات ود وصداقة مع ملك قشتالة، وأمير أرغونه وصقلية، إضافة إلى الجمهوريات الإيطالية التي كانت تربطها ببلاد الشام ومصر علاقات تجارية، فقد كانت هذه البلاد تزخر بمواد التجارة القادمة إليها من تلك الجمهوريات. كما أقام قلاوون علاقات مع ملك فرنسا وإمبراطور النمسا وبذلك قضى على آمال الصليبيين في الحصول على أية مساعدة خارجية[١].

بعدها التفت قلاوون إلى دك معاقل وحصون الصليبيين في البلاد، وقد استطاع تحرير معظم المدن من سيطرتهم[٢].

وكما ظهر قلاوون بطلاً في تاريخ الحروب الصليبية وحرر طرابلس نهائياً من أيديهم ظهر ابنه الأشرف خليل بطلاً على مسرح الأحداث كأبيه وحرر عكا[٣]، رغم أن مساعدات خارجية وصلتها من ملك قبرص هنري الثاني الذي وصل إلى عكا على رأس مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاة وقدر كبير من المؤن والإمدادات. ولم تجد محاولته في إنقاذ ما تبقى من تحصينات المدينة، فحاول التفاهم سلمياً مع الأشرف ووعده بخروجهم جميعاً من عكا ومعهم أموالهم إذا هم استسلموا، لكن الملك هنري لم يملك حق التفاوض باسم أهل عكا جميعاً، كما أنه اختلف مع بعض زعماء عكا حول قبول ما شرطه السلطان عليهم[٤]. وهكذا سقطت عكا بيد المسلمين بعد بقائها أكثر من مائة عام بيد الصليبيين منذ استعادتها من صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧ هـ /١١٩١م الذي كان قد استردها منهم سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م[٥]. وهكذا

١- ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٥٤-١٥٦ – مقدمة المحقق، ص ٥٠-٥١-٥٢ – الغامدي: المصدر نفسه، ص ٢٥٣-٢٥٦.

٢- للمزيد من التفاصيل ينظر: ابن خلكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مصر، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م، ج ٢، ص ٨٨- المنصوري: التحفة، ص ١٢٠- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٣-٢٤ – النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٣٠٤-٣٠٥، ج ١٣، ص ٤٧-٤٨ - ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢ ص ٣٣٥- اليافعي: مراة، ج٤ـ ص ٢٠٧- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣١٣- ابن حبيب: تذكرة، ج ١، ص ١٢٢- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص٨٦٤-٨٦٥ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٤٧- العيني: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٠- السيوطي: المصدر نفسه، ص٢٨٢ - ابن إياس: بدائع، ج١ـ ق٢، ص٣٥٩- الحلبي: المصدر نفسه ج٢، ص٨٨- سالم- طرابلس، ص ٢٦٥-٢٩٦-٢٨٩-٢٩٠- الزيم(سميح وجيه): تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، بيروت، دار الأندلس، الطبعة الأولى، ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩م ص١٣٥-١٤٥.

٣- ينظر المنصوري: المصدر نفسه، ص ١٢٦-١٢٧- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ١٩٦-١٩٩- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤-٢٥- الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٨٩-١٩٠- اليافعي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٠٩- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٢٠-٣٢١- ابن حبيب: تذكرة، ج ١، ص ١٣٧- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٦٩- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٦٣-٧٦٥- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٥، ص ٢٧٣- ابن إياس: ج ١، ق ١، ص ٣٦٨- زكار ص ٥٥٤-٥٥٦- عودات: ص ١٠٨-١٠٩.

٤- الغامدي: المرجع نفسه، ص ٢٧٩-٢٨٠.

٥- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ١٩٩ – ابن تغري بردي: النجوم، ج ٦، ص ١١٢.

وبانتهاء القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي طويت ملحمة الحروب الصليبية التي تعد أعظم ملاحم التاريخ وأطولها، فقد استمرت وقائعها ما يقارب القرنين من الزمن، واشتركت فيها أوروبا كلها بشعوبها وطاقاتها، وتحققت من خلالها آمال السلاطين المماليك الذين حملوا لواء التحرير الإسلامي ضد الصليبيين في تحرير المدن العربية الإسلامية في بلاد الشام كلها وبانتهاء الوجود الصليبي يكون قد انتهى فصل من الصراع العربي الإسلامي الصليبي، لوقائع الحروب الصليبية دروس وعبر ونتائج خطيرة على المشرق على كافة الصعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولاشك أن العبر تتمثل في أن العرب المسلمين تحل بهم الهزيمة عندما تكون صفوفهم مبعثرة، وعلى العكس فهم يحققون الانتصارات عندما تكون صفوفهم موحدة وهذا ما لوحظ أثناء الحروب مع الصليبيين[1].

خامساً: الوضع الإداري:

كانت بلاد الشام إبان الغزو المغولي مقسمة لنيابتين كبيرتين هما حلب ودمشق، وكان يحكمها السلطان يوسف الثاني الأيوبي، بينما كانت حماة لا تزال مملكة تحكم من قبل السلاطين الأيوبيين، كما كان للكرك وضعها الخاص. لكن اختلفت هذه التقسيمات الإدارية بعد معركة عين جالوت وأصبح عدد النيابات ثمانية بدلاً من اثنتين وأصبح لكل نيابة هيكل إداري اتفق أحياناً مع بقية النيابات واختلف أحياناً أخرى عنها. ويعتبر السلطان بيبرس البندقداري المؤسس الأول للهيكل الإداري في الدولة المملوكية بعد أن أصبح سلطان البلاد.

والمتفحص لأوضاع سلطنة المماليك يلاحظ أنه كان هناك ثلاث جبهات رئيسية الأولى في مصر، والثانية في دمشق، والثالثة في حلب. فدمشق كانت جبهة المواجهة مع الصليبيين في الشام إضافة إلى أنها خط الدفاع ضد الخطر المغول القادم من الشرق. أما حلب فكانت جبهة في مواجهة ضد أرمينية الصغرى، وضد الخطر المغولي من جهة أخرى[2].

وجاء تقسيم المماليك للنيابات بشكل تدريجي، فقد وجدت بعض النيابات جذورها قبل قيام العصر المملوكي مثل دمشق وحماة، وبعضها الآخر أوجده السلاطين مثل غزة، القدس صفد، أما طرابلس فقد اعتبرت نيابة بعد تحريرها من يد الصليبيين.

واختلفت هذه النيابات في تاريخ نشوئها وفي مهامها السياسية، ومدى نطاقها الجغرافي، فلكل نيابة حدودها التي تحدث عنها الجغرافيون والإداريون كالعمري، القلقشندي، ابن

١- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٥٦.

٢- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٤٣.

شيخ الربوة، ابن شاهين الظاهري وغيرهم كثير[1].

ولا بد من إيراد لمحة سريعة عن كل نيابة من نيابات بلاد الشام ومعرفة أسباب نشوئها وأهميتها بالنسبة لفترة البحث.

نيابة دمشق:

تعتبر نيابة دمشق نيابة على الإطلاق، وهي كبرى نيابات الشام، حتى أن القلقشندي أطلق عليها اسم نيابة الشام أو مملكة الشام، ووصفها بأنها أجل نيابات المملكة الشامية وارفعها رتبة[2]. ظلت نيابة دمشق في فترة البحث رديفة للقاهرة، وعدت نيابتها من أكبر الوظائف في السلطنة المملوكية بعد الاتابكية الكبرى، وكانت نيابة دمشق مركزاً رئيسياً للحكم المملوكي، وخطاً من خطوط الدفاع ضد الهجمات المغولية المتكررة على البلاد من الشرق كونها تمتلك قوة عسكرية كبيرة تساعد المماليك في حروبهم الخارجية، لذلك كانت محور اهتمام السلاطين، فأنشأوا فيها المعاهد والمؤسسات العلمية والدينية التي تفوق الحد بكثرتها[3].

لقد ضمت دمشق مختلف الوظائف الديوانية، ووظائف أرباب الأقلام والوظائف الدينية، وأرباب السيوف (الوظائف العسكرية)، وكان نظام الحكم صورة مصغرة لنظام السلطنة بالديار المصرية.

وعدت الوظائف العسكرية أهم الوظائف في الجهاز الإداري، وكانت حكراً على المماليك فقط بحكم نشأتهم العسكرية، لذلك لم يتواجد بالبلاد جيش محلي بالمعنى الصحيح يدافع عنها إذا ما اقتضت الضرورة وهذا ما انعكس بشكل كبير على البلاد عند قدوم الغزاة المغول لأن كثيراً من المماليك كانوا يتركون ساحات القتال عند اشتداده.

ومارس رجال الجيش الشؤون الإدارية والمالية والزراعية مستعينين في ذلك بأرباب الوظائف الديوانية، بينما تركوا لأهل البلاد ميدان العلم والثقافة وشؤون القضاء لضعفهم من هذه الناحية. وكانت أهم وظيفة فيها نيابة السلطنة، ويطلق على متوليها النائب أو كافل السلطنة[4].

١- العمري (شهاب الدين): التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، مطبعة العاصمة، ١٣١٢ هـ ص ١٧٦-١٧٧ – للمزيد من التفاصيل ينظر ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، مدينة بدارس، المطبعة الجمهورية، سنة ١٨٩٤م، ص ٤٢- زعرور: الحياة الاجتماعية، ص ٧٩.

٢- القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٠-١٨٤.

٣- القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩٢-٩٣.

٤- العمري: التعريف ص٦٨- اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٦٢- السبكي(تاج الدين): معيد النعم ومبيد النقم، دار الحداثة، ط١، ١٩٨٣، ص٢١- القلقشندي ج٤، ص١٨٤- دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص١٤٩- ولاة، ص ٢٣-٢٤.

ومن أهم الوظائف العسكرية في نيابة القلعة، الحجسوبية، شد المهمات، نقابة النقباء، الخزندارية، شد الأوقاف، ولاية الزكاة والدواوين العشر والمواريث، شد الدواوين، وكانت وظيفة المشد تعني باستخراج أموال للسلطان على من يعسر استخلاصه منه، وكانت الدواوين ترجع أمورها للسلطان، أما إذا كانت دواوين للأمراء فمرجوع أمورها إلى مخدوعه[1].

وشابهت الوظائف الديوانية الموجودة في دمشق بقية النيابات، فقد ضمت الوزارة كتابة السر، نظر البيمارستان، والسواق، نظر السلاح، نظر ديوان الأسرى، وديوان البريد[2].

وساهم الغزو المغولي لبلاد الشام وما تبعه من اضطرابات أمنية في تطوير أنظمة البريد وذلك لكشف أخبار الأعداء مع إيصال المعلومات على جناح السرعة، فالمماليك اعتمدوا ثلاثة أنظمة للبريد وهي المناور، الحمام، / البريد العادي. ويرجع الفضل في تنظيم البريد في العصر المملوكي إلى الظاهر بيبرس سنة ٦٦٩ هـ /١٢٧٠م الذي أراد الإلمام بأوضاع الأعداء[3] من مغول وإفرنج. وكان الصنف الثالث بدمشق من الوظائف هي الدينية والتي كانت تتضمن القضاء والحسبة ومناصب أخرى. وشهدت ساحة القضاء بعض التغيرات، حيث ضمت دمشق أربعة قضاة بدلاً من قاض واحد، وكانت رتبة قاضي قضاة الشافعية هي الأجل رتبة، يليه الحنفي، فالمالكي، فالحنبلي. وقد ذكر أحد المؤرخين أنه وجد قضاة للإقليمين في فترة من الفترات وهو جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م)[4].

١- أبو شامة: تراجم، ص ٢٣٠- ابن عبد الظاهر: تشريف، ص ٦٠- العمري: المصدر نفسه، ص ١٤٨- الحسيني: ذيول العبر، ص ٣٢٨-١٨٦-١٨٧- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٣٢٤- العسقلاني، أنباء، ج ٢، ص ٤٠- الدرر، ج ١، ص ١٧٩- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٣، ص ٤٢٠- دهمان: ولاة، ص ٢٥- معجم، ص ١٤٧.

٢- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ١٢- الذهبي: ذيول/ ص ١٩١- السبكي: (تاج الدين): طبقات الشافعية، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، ج ٥، ص ٣١- الدمشقي: الوفيات، ج ١، ص ٣٩٠- القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٨-١٩٢- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٩، ص ٢٩٨-٣٢١- ج ١، ص ١٠٨- الظاهري: المصدر نفسه، ص ١٣١- السخاوي «شمس الدين محمد» الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، مكتبة الحياة، ص ٦٨- ابن إياس: بدائع، ج ١، ق ١، ص ٣٤٩- دهمان: ولاة ص ٢٨-٣٢.

٣- العمري: التعريف، ص ١٨٩-٢٠١- عطا الله: نيابة غزة، ص ١٠٦.

٤- للمزيد من التفاصيل حول القضايا الدينية ينظر: ابن بسام المحتسب (محمد): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، بغداد، مطبعة المعارف، ص ١٩٦٨، ص ١٠-١٦-١٧-٢٠ أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٢٦ – الشجاعي: تاريخ الناصر، ص ٢٦١- الذهبي: الذيول ص ٢٠٥- السبكي: معيد، ص ٦٥- الدمشقي: الوفيات، ج ١، ص ٣٤٣- القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩٢- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٤٢- ج ٢، ق ٣، ص ٦٥٣- الظاهري: المصدر نفسه، ص ٩٢- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٥٨٨- النعيمي: (عبد القادر): الدارس في تاريخ المدارس، طبعتان، الأولى، مطبعة الترقي، ١٩٤٨، الثانية، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٨٨م، ج ١ ص ٢٠٠.

ويجدر القول إن النشاطات الوظيفية توزعت على عدة منشآت حكومية أولها القلعة، ثم القصر الأبلق، دار السعادة، دار العدل.

فالقصر الأبلق كان معداً لقواد الجيش الذين يمرون على دمشق بجيوشهم، أما دار العدل فكانت مركزاً للحكومة، وقد أضيف إلى دار السعادة وكان يجلس فيها النائب وأركان السلطة لبحث الشؤون المعقدة وإدارة البلاد[1].

نيابة حلب:

تلي نيابة دمشق في الأهمية نيابة حلب، فهي توأمها، وحاضرة بلاد الشام الشمالية، ومنافسة دمشق للسيطرة على بلاد الشام. فقد تمتعت بموقع جغرافي ممتاز على الأطراف الشمالية لبلاد الشام، وبالتالي شكلت عقدة مواصلات برية وتجارية. كما كانت ممراً للجيوش الغربية المتوجهة إما إلى سيس حيث مواطن الأرمن، أوإلى بلاد الروم لملاقاة المغول هناك، وكانت حلقة الوصل بين عدة جهات شمالية وجنوبية.

ولم يكسبها موقعها أهمية في العصر المملوكي فقط، بل اكتسبت هذه الأهمية منذ العصور السابقة، حيث كانت حاضرة الدولة الحمدانية، والحصن الذي شنت فيه القوات الإسلامية الغارات ضد البيزنطيين، وقد استمرت في المحافظة على دورها الحربي حتى أيام المماليك، وكانت تضاهي بغداد والموصل في العظم[2]. ولكن لماذا لم تحتل حلب المرتبة الأولى قبل دمشق رغم أنها كانت الخط الأول لخطر المغول؟

احتلت دمشق المرتبة الأولى باعتبارها مركزاً حصيناً وقوياً ضد المغول، وباعتبار أن المماليك يعتمدون على موارد النيابة المالية وغيرها قربها من مصر مركز الإدارة المملوكية، ونتيجة للإطماع المغولية في السيطرة عليها تجارياً بعد أن فقدت حلب في فترة البحث أهميتها التجارية، لأن حلب كانت مزدهرة جداً عندما كان عمقها الاقتصادي سيس مرتبطة بها، غير أن استقلال سيس عن حلب أثر على عمق حلب ومكانتها، فقلل ذلك من أهميتها تجارياً مما جعل دمشق تتبوأ المركز الأول.

ونتيجة للدور الذي شغلته حلب في التصدي لدولة أرمينية في كيليكية والتصدي لهجمات المغول ومراقبة تحركاتهم وتحركات القوى التركمانية في آسيا الصغرى، إلى جانب توليها حراسة أطراف الشام من محاولات الخرق التي أقدم عليها العدو المغولي من الشرق أو الشمال، فإنها امتازت

١- الظاهري: المصدر نفسه، ص ١١٥- دهمان: معجم، ص ٧٢- ولاة، ص ٣٤-٣٨-٤٠-٤٤- زعرور: المرجع نفسه، ص ١٠٥.

٢- ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢٠٠٢.

عن بقية النيابات بأنه تبع لها عدد كبير من النيابات الصغيرة مع أعمال إدارية كثيرة[1].

وامتلكت حلب الوظائف الديوانية والعسكرية والدينية، وقد ماثلت في ذلك أختها دمشق، وكانت أعلى رتبة فيها نائب السلطنة، ويحق له أن يلي نيابة دمشق تارة، وحلب تارة أخرى[2].

وتميزت حلب عن دمشق بأنها كانت على ارتباط وثيق بالقبائل البدوية لا سيما آل فضل، إضافة إلى ارتباطها بالقبائل التركمانية، كما أنها تلقت كثيراً من المهاجرين لا سيما الأرمن نتيجة للضغوط البيزنطية عليهم ونتيجة معارك السلاطين المماليك[3].

نيابة طرابلس:

لقد منح موقع طرابلس الجغرافي لهذه المدينة أهمية سياسية وتجارية في المنطقة، فقد شكلت محطة بحرية وبرية، وكانت دائماً عرضة للغزو الصليبي حيث هاجمها الفرنج أكثر من مرة لاعتمادها قاعدة هامة لهم على ساحل المتوسط فهي تربط المناطق الساحلية والداخلية، لذلك استقر فيها الصليبيون وجعلوها مقراً لإمارتهم التي أنشأوها في المشرق، كما هاجمها القبارصة والجنويون وسكان المدن الإيطالية وذلك من أجل الحفاظ على الامتيازات التجارية، وبالتالي فإن توفر القرائن والأدلة على أهميتها لدى السلاطين المماليك شجعهم على اعتبارها نيابة. يضاف إلى ذلك الدور الذي شغله حكامها في مساعدة المغول على دخولهم البلاد.

ولم تظهر كنيابة مستقلة لها هيكلها الإداري إلا بعد تحريرها من يد الصليبيين زمن حكم السلطان قلاوون سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م[4]. واحتلت المرتبة الثالثة من حيث الأهمية بعد دمشق وحلب[5]، وقد اختلفت روايات الجغرافيين والمؤرخين حول تحديد النهاية، فقد تراوحت هذه الحدود بين الاتساع والضيق وذلك تبعاً للظروف السياسية التي عاشتها المدينة، وتبعاً لقوة

١- للمزيد من التفاصيل ينظر: ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢٠٥-٢٠٦ – العمري: التعريف، ص ١٨٠-١٨١ – مسالك الأبصار، ص ١٢٨-١٣٠ – القلقشندي: صبح، ج ٤، ص ٢٢٨-٢٣٠-٢٣١ – الظاهري: المصدر نفسه، ص ٥١- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٦٧-١٧١-١٧٨- زعرور: المرجع نفسه، ص ١٠٧- عاشور: مصر والشام، ص ٣٠٧.

٢- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ١٨٤-٢٤٥- ج ٢، ورقة ٢١١- القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢١٨-٢٢٢- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣، ص ٢٨. – العسقلاني: أنباء، ج ١، ص ٢٤-٢٤٠ – الصيرفي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٩١- ابن إياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٥٨٤- ج ١، ق ٢، ص ١٠- دهمان، ولاة، ص ٢٢٩.

٣- لابيدوس (ايرامارفين)، مدن الشام في العصر المملوكي، دمشق، دار حسان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م، ص ٤٥-٤٨- زعرور: المرجع نفسه، ص ١٠٨.

٤- ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١٢١-١٦٢-١٦٣ – عاشور: المرجع نفسه، ص ٣٠٥.

٥- القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢١٧- سالم: طرابلس الشام، ص ٣٠٣.

نائبها أو ضعفه وتبعاً لنائب دمشق ومدى ارتباط نائبها بالسلطة المركزية في القاهرة[1].

وامتلكت طرابلس مثل بقية النيابات فروع الإدارة العسكرية والمدينة، وكان أعلى رتبة فيها النائب الذي يعين من قبل السلطة، وأول نائب فيها سيف الدين بلبان الطباخي (١٢٩٠-١٢٩١ م/ ٦٨٩-٦٩٠ هـ)[2].

نيابة الكرك:

استولى الظاهر بيبرس على الكرك، والشوبك سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣م، فأزال الحكم الأيوبي منهما وأسس فيهما نيابة مستقلة لها وظائفها الإدارية الخاصة بها.

وكانت نيابة الكرك أقل النيابات أهمية في مجرى الأمور السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية، فقد كانت تعيش على هامش الحياة في ذلك العصر، ولم تكن مركزاً لسلطة سياسية أو عسكرية، بل كانت منفى للأمراء والسلاطين، وكانت مركزاً للسجون. ويرجع عدم بروز الكرك في هذه الفترة إلى عدة عوامل طبيعية وسياسية وحضارية، فالطبيعة الجغرافية للمنطقة شبه الصحراوية، وعدم توفر الأنهار والينابيع لم تشجع السكان على تركيز اهتمامهم على الزراعة بل تركتهم معولين على الدولة بتأمين مواردهم عن طريق الهبات والعطايا، أو عن طريق السلب والنهب.

كما أن عدم تجانس طبيعة السكان وأديانهم المختلفة أثرت عليها، فالكرك ضمت العديد من الأجناس كالحضر الذين أكثريتهم من اليهود والمسيحيين، والبدو الذين تألف منهم معظم سكان المنطقة، وهناك فئة ثالثة هي المماليك المسيطرة على السلطة، ولم تتفاعل هذه الفئات مع بعضها البعض لتكوين مجتمع اقتصادي حضاري متميز[3].

ودفع الغزو المغولي المدمر السلطات المملوكية للاعتماد على قلعة الكرك لتخزين الأسلحة والمؤن والحواصل، إضافة إلى تخزين أموال الأمراء وثرواتهم، وأول من جعل الكرك مخزناً للغلال الظاهر بيبرس، فقد ذكر ابن شيخ الربوة أن حصن الكرك خزانة الأتراك ومعاقلهم. وقد استخدمت أراضي الكرك أيضاً كمراع لمواشي وخيول المماليك، وشكلت عقدة مواصلات هامة بين مصر والشام، وكانت أقرب للشام منها لمصر، ذلك أن بلاد الشام شهدت

١- ينظر عن الأعمال الإدارية ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢٠٨- العمري: مسالك، ص ٣٢- القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص ١٤٤-١٤٩ – الظاهري: المصدر نفسه، ص ٤٨.

٢- القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٣٤- سالم: المرجع نفسه، ص ٣٠١- الزين: المرجع نفسه، ص ١٤٩.

٣- البخيت (محمد عدنان): مملكة الكرك في العهد الأيوبي، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٦، ص ١٢٣-١٢٤.

معارك ضارية على أراضيها مع المغول، ولم تستخدم الغلال لوقت الحرب فقط بل عند حدوث المجاعات كما حدث سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م[١].

ولم يتفق الجغرافيون حول تسمية حدود الكرك، وذلك بسبب تعرض حدودها للمد والجزر نتيجة عوامل شامية داخلية، وعوامل ارتبطت بالسلطنة في مصر[٢]. وامتلكت الكرك فروع الإدارة العسكرية والديوانية شانها في ذلك شأن بقية النيابات الأخرى[٣].

نيابة حماة:

شغلت حماة موقعاً استراتيجيا هاماً، إذ تواجد فيها ممرات عسكرية إستراتيجية وجدت عبرها شبكة مواصلات قديمة وحديثة ربطت حماة مع الجبال وباتجاه طرطوس. لذلك احتلت مكانة متميزة في الصراع الذي دار في بلاد الشام. وقد أولاها كلٌ من الأيوبيين والمماليك عناية خاصة. وكان لهذه النيابة تاريخ متميز عن بقية نيابات الشام، ذلك أن الحكم الأيوبي انقطع في بلاد الشام إثر موقعة عين جالوت، لكنه استمر بها، فقد أقر عليها المظفر قطز الملك المنصوري الثاني محمد بن تقي الدين محمود (٦٤٥-٦٨٣ هـ/ ١٢٤٤-١٢٨٤م) وأضاف إليه حكم بارين، كما أعاد إليه المعرة وأخذ سلمية منه وأعطاها لأمير العرب عيسى بن مهنا[٤].

عاشت حماة في ظل البيت التقي كمملكة، لذلك كان الملك على رأس الجهاز الإداري، واستمرت الملكية فيها في كل المراحل ما عدا فترة الانقطاع من سنة (٦٩٨هـ٧١٠/١٢٩٨-١٣١٠م). لكنه في سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م أضاف قلاوون للمظفر محمود لقباً آخر هو سلطان، وعلى هذا حمل ملوك حماة رتبة سلطان، وغدت نيابة صغرى داخل السلطنة العظمى[٥].

١- ابن عبد الظاهر: تشريف، ص ١٢٥- ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢١٣- الذهبي: دول، ج ٢، ص ٢١٣ – ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٢٨٨ – المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٤٠ – إغاثة الأمة بكشف الغمة / القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٥٧م، ص ٣٤- البخيت: المرجع نفسه، ص ٨٤-٢٦٢ – حمادة: دراسة وثقية، ص ٣٧٩.

٢- من أجل الحدود الإدارية ينظر ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢١٣ – القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤١-٢٤٢- الظاهري: المصدر نفسه ص ٤٣٥- عاشور: مصر والشام ص ٣٠٨- زعرور: المرجع نفسه/ ص ٩٧.

٣- ينظر ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص٦٤ – العيني: عقد الجمان ج٣، ص١٠٦ - ابن تغري بردي: المنهل، ج٣، ص٢٧- الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٢٢٤- ابن إياس: بدائع، ج ١، ق ٢، ص١٣١ - البخيت: المرجع نفسه، ص ١٠٨-١٠٩.

٤- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٦-٢٠٧ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٣-٤٣٧- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٨٣- سيانو: مملكة حماة، ص ٤٠-٤١-٤٣-٨٥.

٥- ابن عبد الظاهر: تشريف، ص ٧٣-٧٤ اليونيني: ذيل مرآة، ج٤، ص ٢٠٢-٢٠٤- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤ ص ١٩-٢٠- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١ ص ١٢١-١٢٢- الذهبي: دول، ج ٢، ص ١٨٦ – ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٠٥- سيانو: المرجع نفسه، ص ٩٢- زعرور المرجع نفسه، ص ١٠١.

وأعيدت حماة إلى أبي الفداء بصفته والياً عليها، ثم أصبح ملكاً، وفي آخر فترة حكمه لقب بالسلطان، ثم تولى العرش بعده ابنه الأفضل ناصر الدين محمد الذي حكم (٧٣٢-٧٤٢هـ/١٣٣١-١٣٤١م) حيث تم عزله فقدم إلى دمشق ليعيش فيها، وبذلك تحولت حماة إلى نيابة مثلها مثل بقية النيابات، ولم تشهد حماة بعد سقوط الحكم الأيوبي أحداثاً متميزة، ويبدو أنها تراجعت حضارياً وفكرياً بعد أن كانت موئلاً للعلماء والمفكرين وخاصة في زمن أبي الفداء[1].

والواقع أن حدود حماة لم تتمتع بالثبات والديمومة، بل تعرضت للتغيير والتبديل بسبب الصراعات القائمة في المنطقة، فقد بقيت هذه الحدود دون تعديل حتى هجوم هولاكو على البلاد حيث أعاد المظفر قطز المنصور على بارين وحماة وأعاد إليه المعره، وبقيت هذه الحدود دون تبديل حتى زمن أبي الفداء إذ ضمت المعرة إلى حلب إقطاعاً للأمراء الموجودين فيها، وبقيت هكذا حتى سقط الحكم الأيوبي منها[2].

وضمت حماة جميع الوظائف الإدارية المملوكية الموجودة في النيابات الأخرى، لكنها افتقدت منصب نائب القلعة وهو المنصب الذي وجد في بقية النيابات. وهكذا شكلت حماة صرحاً حضارياً واضحاً في بلاد الشام وماثلت بقية النيابات حيث ضمت الزوايا والربط والخوانق والأسواق والحمامات[3].

نيابة صفد:

يعود وجود صفد كنيابة إلى سنة ٦٦٥ هـ /١٢٦٦م، ذلك أن اشتداد الخطر المغولي اقتضى أن تتفرغ دمشق لمواجهته، بينما تقوم صفد بمواجهة عكا الصليبية، وهكذا اقتضت الأوضاع السياسية إيجاد قوة شامية تقوم بالدفاع عن البلاد وكان قيام صفد[4].

وقد تمت الإشارة إلى الدور السياسي الذي شغلته حتى تم تحريرها من يد الصليبيين واتخاذها مقراً لنيابة (أو مملكة) لها كيانها الذاتي وفقاً للأعراف والتقاليد. وأول نائب ولي

١- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩٣-٩٤-١٣٦- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٥٨ – السبكي: طبقات، ج ٦، ص ٨٤- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٢٣٥- سيانو: المرجع نفسه، ص ١٢٨-١٣١-١٣٢-١٣٥ – زكي (محمد أمين): تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي، ١٣٦٤ هـ /١٩٤٥م، ص ٢٧٠.

٢- للمزيد من التفاصيل ينظر: ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢٠٦-٢٠٧ – العمري: مسالك، ص ٦٦ – القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤١-١٤٢- ابن شاهين الظاهري: المصدر نفسه، ص ٤٨-٤٩.

٣- الدمشقي: الوفيات، ج١، ص٣٢٤- القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٧-٢٣٩ - ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج١، ورقة ٩٨- العسقلاني/الدرر، ج١، ص١٧٨- ابن قاضي شهبة: الدر المنتخب، ص٢٦٨-٢٧٠ - سيانو: المرجع نفسه، ص١٤٦-١٤٧

٤- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٤٤- عاشور: مصر والشام ص ٣٠٥.

عليها هو عز الدين العلائي سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦م، وعلى قلعتها مجد الدين الطوري[١].

في البداية لم تمتلك صفد حدوداً واضحة، لكنها كانت في أقصى اتساعها في العصر المملوكي، وقد منحها موقعها مكاناً استراتيجياً. في وسط بلاد الشام، وامتلكت من الموارد والإمكانات ما مكنها لمواجهة بقايا الصليبيين في ساحل الشام.

تضاربت آراء الجغرافيين حول حدودها ومدى اتساع رقعتها[٢]. وكانت نيابة صفد أول نيابة أقامتها السلطة في فلسطين لتأدية أغراض عسكرية وأمنية، لذلك فإنها شملت كافة فروع الوظائف الإدارية والعسكرية والدينية، لكنها اختلفت عن بقية النيابات بالوظائف الدينية التي تصدرتها وظيفة القضاء، الإفتاء، وكالة بيت المال، نظر الأيتام والأوقاف[٣].

ولا شك أن نيابة صفد استطاعت أن تشغل دور الوسيط بين دمشق والقاهرة تجارياً، يتضح ذلك من خلال الخانات المقامة على الطرق الواصلة بينهما، إضافة إلى وجود الأسواق داخلها وفي بعض القرى والبقاع.

واستطاعت أيضاً أن تشغل دوراً سياسياً، لكننا لم نلاحظ أن أحداً من المؤرخين قد اهتم بتاريخها الثقافي مثل الاهتمام بنيابة القدس، وربما ينبع ذلك من كونها قد أسست حديثاً[٤].

نيابة غزة:

- تحتل غزة مكاناً هاماً في الشطر الجنوبي لبلاد الشام، وتطل أراضيها على البحر المتوسط، وهي آخر بلاد الشام باتجاه مصر. وطبيعتها الجغرافية متنوعة، فقد ضمت أراضي سهلية، حيث امتد هذا السهل بين البحر المتوسط والمنحدر الغربي لمرتفعات القدس والخليل شرقاً. ويحيط هذا السهل بغزة شمالاً وجنوباً حتى حدود مصر. ومن أهم مدنها الساحلية عسقلان وكانت للصليبيين فخربها المسلمون، ولما زارها العبدري كانت خراباً لا أنيس فيها، وهي تمتد على طرفين، طرف البر وطرف البحر[٥].

١- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٤٦- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٤٥-٥٥٠

٢- ينظر ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ١٩٢-٢١٠-٢١٣- العمري: التعريف، ص١٨٢- مسالك، ص١٣٥-١٣٦- القلقشندي: صبح، ج٤، ص١٥٠-١٥٥ – الظاهري: ص٤٤ – زكار: المرجع نفسه، ص ٥٥٦-٥٥٧- الطراونة، نيابة صفد، ص ٩٠-١٣٦.

٣- ابن عبد الظاهر: الروض، ص٩٥- العمري: التعريف، ص١٨٩- ص١٩٢ – القلقشندي: صبح، ج٤، ص١٥٠- ابن قاضي شهبة: ج١، ق٣، ص٥٤-١٢٠ – الظاهري: المصدر نفسه، ص١١٧-١٣٤- زكار: ص ٥٦-٥٦٣- الطراونة: ص ٥٦٠.

٤- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٦٠- زعرور: المرجع نفسه، ص ٤٤.

٥- ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢١٣- العبدري (أبي عبد الله محمد بن محمد): رحلة العبدري المسماة بالرحلة المغربية، الرباط، جامعة محمد الخامس، ١٩٦٨، ص٢٣١- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٧١-٥٧٢- زعرور: المرجع نفسه، ص٨٥.

قامت غزة في فترة طغت فيها الصراعات بين حكام دمشق الذين سعوا إلى الاستقلال وسلاطين القاهرة، وكانت غزة حاجزاً بين الفرقاء، وهكذا ترشحت لأن تكون نيابة[1].

وتشير المصادر إلى الأسباب التي دفعت السلطات المملوكية لتأسيس نيابة غزة. منها اتخاذها قاعدة من قبل السلاطين عند توجه جيوشهم إلى الشام كونها محطة إنذار بالنسبة لمصر، وكونها تجمع القوات المملوكية العائدة من الحروب، وربما كان حجم وضخامة ثورات القبائل البدوية عاملاً آخر من عوامل تأسيس النيابة[2].

وتضاربت روايات المؤرخين حول تأسيسها فبعضها أوردت أن غزة غدت نيابة في عهد الناصر محمد بن قلاوون، حيث مصرها بعد أن كانت مثل بقية القرى الشامية الأخرى، وجعل لها نائباً وسمي بملك الأمراء، وكانت قديماً ضيعة تابعة للرملة[3].

بينما ذكرت الروايات الأخرى أن تأسيسها يعود إلى سنة ٧١١هـ/١٣١١م إثر عودة الناصر من الكرك إلى عرش السلطنة بالقاهرة[4]. ومما يقلل أهمية هذه الرواية تعريف العبدري لغزة حيث قال: «غزة آخر بلاد الشام مما يلي مصر وهي مدينة متسعة عامرة، لا سور لها وبينها وبين البحر مسافة أميال، وهي أكثر عمارة من كل ما تقدم ذكره من بلاد الشام، وهي جسر إلى مصر وإلى الشام، وبها أسواق قائمة ومساجد معمورة، ولها جامع مليح حسن، ولكنها عريت عن عالم أو متعلم، وأقفرت من فقيه وكلام فهي عامرة وقائمة دائرة، وهذا أمر شمل هذا الأوان المدن والقرى، وعم بحكم القدر أصناف الورى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[5].

وهذا يعني بأن غزة كانت مزدهرة أيام الأشرف خليل، ولم تكن ضيعة من ضياع الرملة. وتأتي أهمية غزة كنيابة في المرتبة السادسة من حيث الحجم بعد صفد.

واتصفت حدودها الإدارية بالتأرجح وعدم الثبات، فهناك حدود ثابتة لها تشمل غزة وقراها وتمتد من قرية يبنى شمالاً، وخط البرية الواصل بين السكرية ورفح جنوباً، وقرية عجور شرقاً والبحر المتوسط غرباً. والقسم الثاني حدود غير ثابتة وفي هذا القسم تتجاوز حدود النيابة أو سلطة نائبها حدود القسم الأول إلى المناطق المجاورة مثل القدس، والخليل نابلس،

١- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٤٤- زعرور: المرجع نفسه، ص ٧٥.

٢- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٧٣.

٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٢ — المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤٨- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٩، ص ١٩٣- عطا الله: المرجع نفسه، ص ١٢١.

٤- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٩، ص ١٩٣- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٧٣.

٥- العبدري: المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

قاقون، الرملة حيث ألحقت بها سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م[١]. وكما اختلف المؤرخون في تحديد نشوئها كذلك اختلفوا في تحديد الأعمال التابعة لها وأهمها: تيه بني إسرائيل، عمل تل حمار، الصافية، قريتان، بيت جبريل، الخليل، بيت المقدس[٢]. وقد ضمت غزة العديد من الوظائف وفروع الإدارات العسكرية والمدنية شأنها في ذلك شأن بقية النيابات[٣].

نيابة القدس:

وكانت آخر النيابات في فترة البحث نيابة القدس. وأن التحالف الذي تم بين أمراء المماليك ورجال الدين هو الذي أعطى مدينة القدس حظاً كبيراً من الاحترام والاهتمام الذي تطور فيما بعد إلى تأسيس نيابة خاصة بها تمحور حولها تاريخ فلسطين في العصر المملوكي.

ولم تكن القدس عند بداية حكم المماليك نيابة بل ولاية تابعة لنائب السلطنة بدمشق، غير أنها أخذت تخطو خطواتها الاستقلالية أيام حكم السلطان قلاوون لتصبح نيابة بين نيابات الشام، ولكن ليست نيابة لها أهميتها كما أصبحت فيما بعد[٤].

وتشعبت آراء المؤرخين حول تحديد بداية نيابتها الاستقلالية، فبعضهم أورد أن القدس أصبحت طبلخاناة سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م[٥] غير أن كلاً من ابن حجر العسقلاني والقلقشندي جاء تاريخهم بعد ذلك بعشر سنوات، فقد قال القلقشندي:

«نيابة القدس وقد تقدم أنها كانت في الزمن المتقدم ولاية صغيرة، وأن النيابة استحدثت فيها في سنة سبع وسبعين وسبعمائة ونيابتها أمرة طبلخاناة»[٦].

وكان تمراز أول من ولي نيابتها، وكانت قبل ذلك تحكم من قبل والٍ يعين من قبل والي دمشق[٧]. ويبدو أن مجموعة من العوامل السياسية أرغمت المماليك على استقلالها عن غيرها.

١- عطا الله: المرجع نفسه، ص ٥٩.

٢- ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص ٢١٣.

٣- العمري: التعريف، ص ١٩٧- القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٨- ج ١٤ – ص ٣٩٢-٣٩٣ – المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٠-٩٢- ج ٢، ق ٣، ص ٧٢١- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١ ق ٣، ص ٣٢٣ – العسقلاني: أنباء، ج ٢، ص ٤٠-٣٦٧- الظاهري: المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٣٥ – الصيرفي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢٧-٤٦٠ – العليمي: الأنس، ج ٢، ص ١٠٥- - زكار: المرجع نفسه، ص ٥٧٣ – عطا الله: المرجع نفسه، ص ٢٧٧-٢٩٤-١٢٥.

٤- العسقلاني: الدرر، ج٤، ص٣٥٠- الدمشقي: الوفيات، ج١، ص٣٠٥- زكار: المرجع نفسه، ص٥٨٢- زعرور نفس المرجع ص٨٨

٥- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٨٣.

٦- القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٩.

٧- العسقلاني: أنباء، ج ١، ص ١٥٨- العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٧٢.

وأهمها ضغط تيمورلنك على الحدود الشرقية لبلاد الشام، والصراع بين المماليك الأتراك والشراكسة إلى جانب تجريد نائب دمشق من بعض ممتلكاته القريبة من مصر وذلك لإضعافه. وهذا يعين أن السلطان برقوق جعل من القدس نيابة مستقلة سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣م وعين عليها الأمير قردم الحسيني عندما كان في طريقه لمحاربة تيمورلنك[١].

ومما زاد في تأكيد المقولة بأن القدس أصبحت نيابة مستقلة سنة ٧٩٦ هـ ما ذكره ابن صصري عند قدوم السلطان أحمد بن أويس صاحب العراق إلى الشام حيث ذكر:

«ودخلوا إلى القدس في طريقهم فلم يزوروا قعدوا فيه ثلاثة أيام» وقد ذكر لي والي القدس شرف الدين المرجاني قال: «ولما دخل السلطان إلى القدس التقاه نائب القدس الشريف، ودخل إلى القدس وزار»[٢].

إن خوف الظاهر برقوق على المدينة المقدسة دفعه إلى استحداث نيابة مستقلة فيها كي يستطيع الوقوف في وجه الأخطار الداهمة، وكانت تولية النائب فيها يتم من قبل نواب دمشق، ولم يزل الأمر كذلك حتى سنة ٨٠٠ هـ /١٣٩٧م حيث أصبحت التولية تتم من قبل السلطان في القاهرة[٣].

وماثلت نيابة القدس كافة النيابات الأخرى من حيث امتلاكها لكافة فروع الإدارات العسكرية والديوانية والدينية، لكنها اختلفت عن البقية في فروع الوظائف الدينية، فقد وجدت فيها مناصب دينية لم توجد في غيرها مثل وظيفة ناظر الحرمين الشريفين، ومشيخة الصلاحية.

وتعهد وظيفة الناظر أحياناً إلى رجال الدين، وفي أحيان أخرى إلى عدد من الأمراء المماليك الذين برتبة طبلخاناة، من هؤلاء الأمير أحمد بن آل ملك الذي ولي النظارة سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٨٣م، والأمير بوري الأحمدي سنة ٧٨٠ هـ /١٣٧٨م وآخرون كشهاب الدين أحمد اليغموري، جلال الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد الجعفري ت (٧٤٠ هـ /١٣٣٩ م).

وكانت وظيفة الناظر تتمثل في الإشراف على حرمي القدس والخليل من بناء وإصلاح،

١- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨١٣- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٥١١ العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٢ – غوانمة: تاريخ نيابة القدس، ص ١٦- زعرور: المرجع نفسه، ص ٨٨- زكار: المرجع نفسه ص ٨٨.

٢- ابن صصري: الدرة، ص ١٤٦.

٣- العليمي: المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٨٢- غوانمة: المرجع نفسه، ص ١٩.

إضافة إلى إشرافه على الأوقاف الخاصة بها وتثمير تلك الأوقاف لصالح الحرمين[1].

وكان شيخ الصلاحية أحد الرجال الثلاثة الكبار يصرفون شؤون النيابة، أما الآخران فهما نائب السلطنة وناظر الحرمين. ونظراً لمكانة متوليها فقد كان يتقلد شيخ الصلاحية منصب قاضي القضاة في بيت المقدس، أو يجمع بين نظر الحرمين ومشيخة الصلاحية، أو بين المشيخة وخطابة المسجد الأقصى، أو نصف الخطابة، أو بين المشيخة ونصف مشيخة الخانقاه الصلاحية، وكان يقيم في بعض الأحيان في القاهرة وينوب عنه أحد الشيوخ المقيمين في القدس[2].

ولا بد أثناء البحث في الوضع الإداري لبلاد الشام من التساؤل عن عدم إقدام بيبرس بعد تحرير إنطاكية على اعتبارها نيابة مع أنها تمتعت بموقع استراتيجي هام، فهي عقدة مواصلات تجارية وبرية هامة، كما أنها شغلت دوراً سياسياً هاماً في المنطقة، بينما اعتبرت طرابلس نيابة؟

لا بد من القول إنه طالما كانت حلب تشكل الجبهة الشمالية لبلاد الشام، وتتولى مهمة الدفاع ضد الخطر المغولي، وضد أرمينية الصغرى فلا داعي لجعل إنطاكية نيابة. أما طرابلس فقد كانت في السابق إمارة صليبية وأبقاها قلاوون نيابة حيث وجدت معطيات دفعته لذلك وهو موقعها الجغرافي، والبحر يحيط بها من جهة الغرب، وجبال لبنان تحيط بها من بقية الجهات، إضافة إلى دورها السياسي والازدهار الحضاري الذي حظيت به على مختلف العصور، وهذه العوامل مجتمعة أدت إلى اعتبار طرابلس نيابة.

ولوحظ في فترة البحث أن بعض المؤرخين أكثروا من ذكر سلطية، ولكنهم لم يعتبروها نيابة مستقلة، وإنما تابعة لنيابة حلب، وقد مر ذكرها في الحوادث التاريخية حيث عصى نائبها منطاش سنة ٧٦١ هـ / ١٣٨٨ م[3].

وفي النهاية نستطيع القول بالرغم من أن الهيكل الإداري لهذه النيابات شهد اختلاف بعضها، فإنها شكلت جسداً سياسياً واجتماعياً وعسكرياً واحداً وهذا ما أظهرته حوادث التاريخ.

١- الدمشقي: الوفيات، ج ١، ص١١- المقريزي: السلوك: ج ٣، ق ١، ص ٢٢١-٢٢٤- ج ٣، ق ٢، ص ٨٦٧ – العسقلاني: أنباء، ج ٢، ص ١٠٧- السخاوي: الضوء، ج ٢٧٣، ٣٢، ج ١ ص ٣٨، ج ٤، ص ٣٤- العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٠-٢٧٣- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٨٧.

٢- المقريزي: السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٤٤٠-٤٨٣- العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٨-٢٨٣- زكار: المرجع نفسه ص ٥٨٧- غوانمة: المرجع نفسه، ص ٣٧.

٣- ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ٢١٨.